رسائل السلام
(١١)

لا تفرح ..

مواضع النهي عن الفرح في القرآن الكريم وأسرارها

د. نور الدين أبو لحية



هذا الكتاب

يحاول هذا الكتاب ـ عبر الموضوعات القرآنية العشرة التي طرحها ـ أن يتعرف على أسرار النهي عن الفرح في القرآن الكريم، والذي ورد التصريح به في قوله تعالى: ﴿ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ (القصص: 76)

فهذا النهي الوارد على لسان الناصحين من بني إسرائيل لقارون، نهي سار إلى يوم القيامة، وهو يعبر عن الحقيقة بلسانها الفصيح الناصح.. ذلك أننا نحتاج أن نستمع لمن يدعونا إلى عدم الفرح كما نحتاج إلى من يدعونا إلى عدم الحزن أو عدم اليأس..

ذلك أن الفرح مثله مثل الحزن واليأس قد يتحول إلى أداة من أدوات الشيطان التي يخرب بها بنيان الإنسان، ويجعله منشغلا بما وصل إليه من نعمة، غافلا عما ينتظره من ألم.

ولذلك جمع الله بين النهي عن الأمرين جميعا: الحزن والفرح في قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد: 23]

رسائل السلام

(11)

لا تفرح..

مواضع النهي عن الفرح في القرآن الكريم وأسرارها

د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

1438 – 2017

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

يحـاول هـذا الكتـاب ــ عـبر الموضـوعات القرآنيـة العشرة التي طرحها ــ أن يتعـرف على أسـرار النهي عن الفرح في القرآن الكريم، والذي ورد التصريح به في قوله تعـالى: ﴿ لا تَفْـرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَـرِحِينَ ﴾ (القصـص: 76)

فهـذا النهي الـوارد على لسـان الناصـحين من بـني إسرائيل لقارون، نهي سار إلى يوم القيامة، وهو يعبر عن الحقيقـة بلسـانها الفصـيح الناصـح.. ذلـك أننـا نحتـاج أن نسـتمع لمن يـدعونا إلى عـدم الفـرح كمـا نحتـاج إلى من يدعونا إلى عدم الحزن أو عدم اليأس..

ذلك أن الفرح مثله مثـل الحـزن واليـأس قـد يتحـول إلى أداة من أدوات الشـيطان الـتي يخـرب بهـا بنيـان الإنسان، ويجعله منشغلا بمـا وصـل إليـه من نعمـة، غـافلا عما ينتظره من ألم.

ولذلك جمع الله بين النهي عن الأمرين جميعا: الحزن والفرح في قوله تعـالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَـوْا عَلَى مَـا فَـاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُـوا بِمَـا آتَـاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُـلَّ مُخْتَـالٍ فَخُـورٍ ﴾ [الحديد: 23]

لذلك حاول هـذا الكتـاب من خلال التـدبر في القـرآن الكريم أن يبحث في أسرار الجمـع بين النهي عن الفـرح، في نفس الوقت الذي نرى فيه الدعوة إليه، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْـرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 58]

وقـد تـبين لنـا من خلال هـذه الأبحـاث التأمليـة أن

القــرآن الكــريم لا يــدعونا عنــد نهيــه عن الفــرح إلى مــا نتوهمه بديلا عنه، وهو الحزن أو الكآبـة أو الإحبـاط.. ذلـك أن القرآن الكريم كتاب سعادة لا كتاب شقاء، ﴿ مَا أَنْزَلْنَـا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طـه: 2]، ويسـتحيل على الكتـاب الذي يضم دستور السعادة الأبديـة أن يـدعونا إلى الحــزن أو الألم والشقاء.

لكنه يـدعونا إلى الهـرب من الفـرح المزيـف الكـاذب الذي قد يشغلنا عن حقيقتنا ووظيفتنـا كمـا شـغل قـارون عنهما، فتحول فرحه إلى ألم يسيطر عليه في كل لحظة.

ذلــك أن الفـــرح المزيـــف لا يختلـــف عن الخمـــرة ونشوتها، فهي تجعـل صـاحبها بلا عقـل ولا تفكـير، فيقـرر قراراته المصيرية بعيدا عن الاستبصار والتدبر والتفكر.

ولذلك كان هـذا الكتـاب رسـالة من رسـائل السـلام، لأن السلام الحقيقي يبحث عن السعادة الحقيقية الأبديــة، لا السعادة المزيفة اللحظية المحـدودة.. والفـرح المزيـف أكبر عقبة تحول بين الإنسـان وبين تحقيـق تلـك السـعادة الأبدية.

أنا

أنا هي أول لفظة يعبر بها الإنسان عن نفسه.

وفي الخلـق من يقولهـا لمجـرد التعـرف والتعريـف، ويستعملها كما يستعمل جميع الضمائر منفصلة ومتصلة لا يشعر بالتغاير بينها، ولا يعتقد أن أنا أفضل من أنت، أو أنـا خير من هو أو هم.

وفي الخلـق من يسـتعملها كـأداة يمحـو بهـا غـيره، ويخضع بهـا رقـاب غـيره، يقولهـا ملء فيـه، ويتصـور أنهـا كافيه بمجرد نطقه بها أن يسجد لها الخلـق، وأن يسـمعوا ويطيعوا، أو يسبحوا ويكبروا.

الأول يشـعر أنـه جـزء من كـل، وفـرد في مجمـوع، وواحد من عدد ضخم يتشكل منه بنيان الكون، أما الثـاني فيعتقـد أنـه هـو الكـل، وغـيره فـروع لخدمتـه، وأنـه هـو المجمـوع وغـيره شـتات يتوحـدون فيـه، وأنـه هـو الواحـد وغيره أصفار عن يساره و يمينه يتشكل منه عدده.

الأول يـرى نفسـه وغـيره، ويسـمع الأصـوات جميعـا، وبكـل موجاتهـا، وينمحي في الآخـرين كمـا ينمحـون فيـه، ويحبهم ويتفاعل في حياتـه معهم، أمـا الثـاني فلا يـرى إلا نفسه، ولا يسمع إلا حسه أومن ضـبطت موجاتـه بحسـب ترددات حسه، ولا يعرف الصفر وجوده لأن الصفر غيره.

الأول إذا مشى لم تشـعر بـه الأرض، ولم يتحـرك لـه النسـيم، ولم تهـرب الطيـور من أوكارهـا ولا النمـل إلى قراهـا ولم تهـتز صـفحة المـاء وهـو يطالعهـا بوجنتـه، أمـا الثـاني فتنـدك الأرض من تحتـه، ويتخلخـل السـحاب من

فوقه، وتفر النسور من قمم الجبال إن نظر إليها، وترتفـع أمواج البحار إن طالعها بصفحته كالقمر يمدها ويسحبها.

والأنا الثانية هي التي يقال فيهـا: ﴿ لا تَفْـرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (القصص: 76)، وهي التي ذكر ذمهــا في القرآن الكريم، وهي التي كانت مصيبة على كل من قالها تائها بنفسه متكبرا على ربه.

وأول من قالهـا ــ كمـا ينص القـرآن الكـريم ــ إبليس عندما أمره الله تعـالى بالسـجود لآدم فـأبى، فسـأله اللـه تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْـجُدَ إِذْ أَمَرْتُـكَ قَـالَ أَنَـا خَيْـرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِين ﴾ (الأعراف:12)

ومن ذلك الحين بدأ التعاظم بالـذات، وبـدأ الانفصـال عن الكون المتكامل المتوازن، وورث خلق كثـير من بــني آدم هـذه الكلمـة وتعـاظموا بهـا وتـاهوا وأسسـوا المعابـد والقصــور لتعبــد ذواتهم، لأن الــدماء الإلهيــة تســري في عــروقهم، وشــيدوا التماثيــل ونشــروا صــورهم في كــل المحلات وعلقوها على جميع الجـدران، وقتلـوا كـل ذبابـة تطن أثنـاء حـديثهم، وقطعـوا حبـال كـل من رفـع صـوته أمامهم، وأنشأوا دور الأمن المختلفة لتقـوم بمـا يجب في حقهم من تشريفات وتعظيمات وتبجيلات.

والقرآن الكريم يقص علينا من أنبـاء هـؤلاء، ومنهم ﴿ الَّذِي حَــاجَّ إِبْــرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَـاهُ اللَّهُ الْمُلْـكَ إِذْ قَــالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَـا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَـالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنْ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنْ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَـوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة: 258)

والقرآن الكريم يشير بهـذه الآيـة إلى السـذاجة الـتي

يقع فيها هؤلاء المتعاظمين بأنفسهم حين يصـدقون أنهم ـ حقيقة ــ آلهـة مـا دام الملـك بأيـديهم ورقـاب الخلـق بين أيـديهم يقتلـون من يشـاءون ويحيـون من يريـدون بـدون معارضـة ولا محاسـبة، وهـذا التعـاظم يحجب عن أعينهم مظاهر القصور الكثيرة التي تحيط بجميع ذواتهم.

ولهـذا قبـل هـذا الملـك المنـاظرة مـع إبـراهيم عليـه السلام لأنه كان يظن أن ألوهيته أمر بديهي لا يناقش فيه، وتصوير دهشته وحيرته عندما واجهه إبراهيم عليه السـلام بالشـمس يـدل على أنـه لم يكن يراهـا كمـا يراهـا سـائر الناس لأنه كان مشغولا بنفسه، ولا يـرى غـيره إلا أصـفارا يعكفون على التسبيح له.

والقرآن الكريم يذكر نموذجا آخر لتعاظم الأنا يفصـل في ذكره تفصيلا لم يحظ به اسم كافر غيره، هـو فرعـون حيث ذكـر اسـمه في القـرآن الكـريم في سـبعة وسـتين موضعا، وهذا النموذج تنطبق عليـه نفس صـفات النمـوذج السابق إلا أن القرآن الكريم يفسـر سـبب مرضـه، وينص عليه في قولـه تعـالى: ﴿ فَاسْـتَخَفَّ قَوْمَـهُ فَأَطَـاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (الزخرف:54)

ففسق قومه وخفـة عقـولهم وطـاعتهم المطلقـة لـه وقابليتهم لألوهيته هي التي جعلته يصـدق حقيقـة أنـه إلـه ينبغي أن يعبد، ولهذا كان يصيح فيهم دائما بخطبـة واحـدة تكفي مـبررا لأي أمـر يصـدره هي: ﴿ أَنَـا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴾ (النازعات:24)

وعندما جـاءه موسـى عليـه السـلام يـدعوه إلى اللـه ويعرفه بأنه رسول رب العالمين تعجب أن يكون هناك إله غيره فسأله:﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الشعراء:23)

وعندما أراهم موسى عليه السلام كل الحجج نهض فرعون يصيح في قومه وهو يتصور أن كلماته وحدها تكفي لتقرير ما يقول ونسف جميع معجزات موسى عليه السلام :﴿ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنْ الْكَاذِبِينَ﴾(القصص:38)، وهذه هي السذاجة التي يتحلى بها كل من يعظم أناه ويمحو غيره.

لقد كان يتصور أنه إن وجد إله آخر فلن يعدو كونه صاحب سرير مثل سريره أو تاج مثل تاجه،مثلما تتصور الخلائق جميعا من أصحاب الملل المنحرفة آلهتها عندما تطبعها بطابع القومية والعرقية والأرض وتغرق ربها في مستنقعات من الأساطير لتعبد ذاتها من خلال ربها، وتنزل ربها من علياء وجوده ليرفع رايتها ويصيح بشعاراتها ويفكر بتفكيرها.

ويصور القرآن الكريم أسلوب هؤلاء المتعاظمين مع كل من يقيم عليهم الحجة، وهو أسلوب واحد في مختلف فترات التاريخ وإن تعددت أشكاله، وهو ما صاح به فرعون في وجه موسى عليه السلام :﴿ قَالَ لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنْ الْمَسْجُونِينَ﴾(الشعراء:29) ثم يتوجه إلى الملأ من قومه ناصحا في غاية التواضع :﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾(غافر:26)، والفساد الذي يعنيه فرعون هنا هو أن يتحول غيره أرقاما ويصير هو جزءا من كل.

والقرآن الكريم يخبرنا بذلك التهديد ومحاولة تنفيذه

ليبين سذاجة التفكير الناتج عن كسل عقل المتعاظم الذي لا يرى غيره ولا يستفيد من غيره، والذي يحول بينه وبين الصبر على أي مناظرة أو التنازل لقبول أي حجة.

ولهذا نرى في جميع مواطن الحوار بين المؤمنين وغيرهم في القرآن الكريم الكفار يقطعون الحوار بإثارة الشغب والتهديد بالقتل والرجم أو بممارسة القتل نفسه، فإبراهيم عليه السلام يقطع حواره الرقيق مع والده بهذا التهديد الخطير: ﴿ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَاإِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾(مريم:46)، والرجل الذي جاء قومه يسعى في سورة يس يقطع حواره بقتله ليستأنف القرآن الكريم ذكر تتمة حديثه بعد موته، ومؤمن آل فرعون قطع حواره الطويل البليغ بما يشير إلى محاولة قتله، كما قال تعالى:﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾(غافر:45)

والقرآن الكريم يبين أن ذلك التيه بالذات قد لا يكون بسبب ملك عريض أو عرش عظيم، بل قد يتيه الإنسان ببستان يملكه يمحو من خلاله غيره ويتعاظم عليهم، قال تعالى عن صاحب الجنتين:﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (الكهف:34)

بل قد يقول هذا الضمير البسطاء من الخدم والسقاة لمعارف بسيطة يعلمونها أو يدعونها كما قال تعالى عن أحد صاحبي يوسف عليه السلام في السجن :﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِي ﴾(يوسف:45) ولهذا أنكر عليه الحسن البصري، وقال: كيف ينبئهم العلج؟!

بل في القرآن الكريم ما يشير إلى هذا الإنكار عندما

طلب منه يوسف عليه السلام أن يذكره عند ربه فنسي، فمن اللؤم نسيان نبي عرف صديقيته وإحسانه وبشره بنجاته.

ولهذا نرى أن كل من قال أنا في القرآن الكريم من الكفرة يقولها متعاظما مهما اختلف نوع تعاظمه.

ولعله لأجل هذا وردت كراهة التلفظ بهذه الكلمة لغير ضرورة، قال جابر بن عبد الله: (استأذنت على النبي ﷺ، فقال: من ذا؟ فقلت: أنا فقال النبي ﷺ : أنا أنا، قال الراوي: كأنه كره قوله أنا)

أما المؤمنون فقولهم أنا في القرآن الكريم يأتي مشفوعا دائما بعبارات التواضع كما قال تعالى عن رسول الله ﷺ: ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(الأعراف: 188)

فالله تعالى يأمر نبيه ﷺ أن ينفي ادعاء أي ملكية لنفع يجلبه لنفسه أو ضر يمنعها منه إلا بما يسره الله له من قوى، وينفي عنه ادعاء الغيب، ويأمره أن يقول في تواضع:﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

ويأمره في آية أخرى أن يخبرهم بأنه بشر مثلهم آتاه الله الرسالة، وأما الله تعالى فواحد، وأن لقاء الله مرتبط بأعمالهم التوحيدية المحضة لينفي عنهم أي ظن في نسبة الألوهية له كما نسبها النصارى للمسيح عليه السلام، قال تعالى :﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ

عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(الكهف:110)

وقد أمر النبي ﷺ أن يقول هذه الكلمات التي تفيض بالتواضع لقوم عتاة متكبرين يتصورون أن مقامهم الرفيع يستدعي إنزال ملائكة أويستدعي خطابا مباشرا من الله بل رؤية مباشرة له، قال تعالى:﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾(الفرقان:21)

وكانوا يقولون له ﷺ في تعاظم إذا أمرهم بالسجود للرحمن:﴿ وَمَا الرَّحْمَانُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ (الفرقان:60) والقرآن الكريم يعيد إلى الأذهان هنا فرعون الذي سأل موسى: ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء:23) ليبين أن مصدر الكفر واحد، وهو تضخيم الأنا والتعالي بها على كل شيء حتى على الله، ولهذا قال تعالى عن الكافرين في كل زمان ومكان :﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾(النمل:14)، فقد جمعوا بين الجحود والكفران مع يقين أنفسهم بالحق تعاليا بذواتهم وتعاظما بها.

وهم يتخذون في هروبهم من الحق مسالك مختلفة أكثرها بدائية ما ذكره نوح عليه السلام عن قومه وهو يشكو إلى ربه طريقة مقابلتهم لدعوته،قال تعالى :﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾(نوح:7)

وهناك من يتعالى عن الحق ويتعاظم على مجرد حركة يشير بها إلى نكران الحق فهو يكتفي بالتولي، ولا يضع يديه على أذنيه ولا يستغشي ثيابه لأن الكبر الذي

حشيتا به تمنعه من الاستماع لغير أهوائه، قال تعالى :﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(لقمان:7)

وهناك من يجادل ويحاجج في كل المجالات وبدون علم يتخذ من مجرد حديثه حجة تكفي لرد أي حق وإحقاق أي باطل، قال تعالى:﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (غافر:35)

وانصراف هؤلاء عن الحق ـ كما يوضح القرآن الكريم ـ ليس انصرافا بمحض إرادتهم ولا برغبتهم، وإنما هو صرف، فالمتعاظم غير مخير كسائر الخلق، بل هو مسير بقيود نفسه الكثيرة والتي لا يطيق لها دفعا،قال تعالى :﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾(الأعراف:146)

وكيف يؤمن هؤلاء أو يذعنوا للحق أو يكفوا عن الجدال، وتعظيمهم لأنفسهم يقف جدارا منيعا بينهم وبين السماء يحول بينهم وبين الهداية التي تستقبلها كل الكائنات، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأعراف:40)

واختيار القرآن الكريم لمثال الجمل الذي يحاول أن يدخل من خلال ثقب إبرة لبيان استحالة دخولهم الجنة يشير إلى ذلك التعاظم، فكأن الجنة في أذهانهم ثقب

إبرة، وكأنهم عند أنفسهم جمل ضخم(1) لا تساوي الجنة أمامه شيئا، ويستحيل على الجمل أن يلج سم الخياط.

والقرآن الكريم يصف لنا مشهد قبض أرواح هؤلاء المتعاظمين وهم في سكرات الموت يحاولون الاحتفاظ بحشاشة الروح التي لا تزال تنبض بها عروقهم، يفرون بها في كل موضع من جسدهم، كما يفر الصبي الصغير من الحقنة فيضطر لإمساكه بشدة، وكذلك تفعل الملائكة الموكلة بقبض روحه وهي تؤدي الوظيفة التي وكلت بها، قال تعالى:﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾(الأنعام:93)

وفي أمر الملائكة لهؤلاء بإخراج أنفسهم دليل على تعلق هؤلاء الشديد بذواتهم تعلقا يبتر صلتهم بكل الكون، ويجعل منهم كونا حياديا غارقا في الحياد.

بينما تصف الآيات القرآنية مشهد المؤمنين وهم في احتضارهم في حالة استرخاء قصوى تنم بالراحة والطمأنينة والسعادة، قال تعالى يخاطب تلك النفس المؤمنة البعيدة عن كل أنا ومتعلقاتها:﴿ يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّة ُارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾(الفجر: 2ـ30)

وفي أمرها بالدخول في عباد الله الصالحين دليل على ما كانت تحمله النفس من تواضع ولين وشعور

---

(1) سئل ابن مسعود عن الجَمَلِ فقال هو زوج الناقة. كأنه استجهل من سأله عن الجمل، وقرأ بعضهم الجُمل، وفسَّروه فقالوا قَلسُ السفينة.. معاني القرآن وإعرابه للزجاج (2/ 338)

بالآخرين،وهي البشارة التي يبشر الله بها عباده الصالحين الـــذين لا يشـــعرون باكتمـــال نعيمهم في الجنـــة إلا بإخوانهم،قـال تعـالى :﴿ وَالَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾(العنكبوت:9)، ويصف حالهم في الجنة بكونهم ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (الحجر:47)

ويخبرنـا أنس بن مالـك بحادثـة كـانت سـببا لمسـرة عظيمة انتشرت بين الصحابة، قال: جاء رجل إلى رسـول الله ﷺ فقال:يـا رسـول اللـه مـتى قيـام السـاعة؟، فقـام النبي ﷺ إلى الصلاة، فلما قضى صلاته قـال: أين السـائل عن قيام الساعة؟، فقال الرجل:أنا يا رسول الله قال: مـا أعددت لها؟ قال :يا رسول الله ما أعددت لها كبـير صـلاة ولا صوم إلا أني أحب الله ورسوله، فقال رسـول اللـه ﷺ (المرء مع من أحب وأنت مع من أحببت)، فما رأيت فـرح المسلمون بعد الإسلام فرحهم بهذا[1].

ولهذا لما حضرت بلالا الوفاة قالت امرأتـه :واحزنـاه، فقال:بل واطرباه، غدا نلقى الأحبة محمدا وحزبه.

وهؤلاء العباد الصالحون المتعارفون في محبة الله لم تكن المحبة لتربط بين قلـوبهم وتجعلهم نفسـا واحـدة لـو كان لكل واحد منهم كيانه الخاص.

ولهـذا وصـف اللـه تعـالى تجمعـات وتوحـدات غـير المسلمين بهذا الوصف المطلع على ما تخبئـه الضـمائر:﴿ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَـدِيدٌ تَحْسَـبُهُمْ جَمِيعًـا وَقُلُـوبُهُمْ شَـتَّى ذَلِـكَ بِأَنَّهُمْ قَـوْمٌ لَا يَعْقِلُـونَ﴾ (الحشـر:14)، لأن كـل واحـد من أولئك المجتمعين يريـد أن يبـني صـرح نفسـه على أطلال الآخرين، فهم يجتمعون بالمصلحة، ويتفرقـون أو يتقـاتلون

1() رواه أحمد 3/159 (12652) وأبو داود 5127.. وغيرهما.

إن دعت المصلحة إلى ذلك.

في نفس الوقت الـذي نـرى فيـه مشـاهد الإيثـار بين المؤمنين تشير إلى تلك الروح الواحدة الـتي تجمـع بينهم، قــال تعــالى:﴿ وَالَّذِينَ تَبَــوَّءُوا الــدَّارَ وَالْإِيمَــانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَـةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِـهِمْ وَلَـوْ كَـانَ بِهِمْ خَصَاصَـةٌ وَمَنْ يُوقَ شُـحَّ نَفْسِـهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُـونَ﴾(الحشـر:9) فهم يحبـون ضـيوفهم واللاجـئين إليهم ويمـدونهم بكـل شـيء يحرمون أنفسهم منه، ولا يجدون في صـدورهم إلا الرضـا والراحة والطمأنينة.

وهذه الراحة والأمن النفسي التي يراهـا المـؤمن مـع إخوانه يفتقدها الـذي لا يعـرف من الضـمائر المنفصـلة إلا ضمير واحدا هو ضمير المتكلم.

وبــذلك يصــور القــرآن الكــريم والتوجيهـات النبويـة والنماذج العالية من النفوس الراقيـة عظم خسـارة الـذي يتخــذ من ذاتــه صــنما، ومن الأرض هيكلا، ومن الخلــق قرابين، فأول ما يخسره من ذبح جميع الكون قربانا لذاته نفسه التي بين جنبيه، ومن خسر نفسه خسـر كـل شـيء خسـارة لا تعـوض قـال تعـالى:﴿ وَقَـالَ الَّذِينَ آمَنُـوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيم﴾ (الشورى:45)

ويرد القرآن الكريم سـبب ذلـك النسـيان إلى نسـيان الله تعالى، لأن من نسي اللـه نسـي كـل شـيء، لأن كـل شـيء باللـه ومن اللـه وإلى اللـه، وكـل شـيء بغـير اللـه باطل، وكل شيء من غير الله هباء.

فالناسي لله ارتبط بوجود وهمي خيالي لا حقيقة لـه، فلذلك يصعق يوم يكتشف الحقيقة مبهوتا حين يرى نفسه قـد تعلـق بقشـة في وسـط محيـط كـوني لا ينتهي، قـال تعالى: :﴿وَلَا تَكُونُـوا كَالَّذِينَ نَسُـوا اللَّهَ فَأَنْسَـاهُمْ أَنْفُسَـهُمْ أُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُون﴾(الحشر:19)

واعتـبر كـل جـرائمهم المتولـدة من أنـانيتهم خنـاجر تطعن صدورهم قبـل أن تصـل لضـحاياهم، فهم الفريسـة وهم الصياد، وهم الخائن وهم المخـون، وهم الخـادع وهم المخـــدوع، وهم المســـتهزئ وهم المســـتهزأ بهم، وهم المفتري وهم المفترى عليه، وهم الظالم وهم المظلوم...

قال الله تعالى يوضـح هـذه الحقـائق، ويخـاطب هـذه النفـوس:﴿ يُخَـادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُـوا وَمَـا يَخْـدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْـعُرُونَ﴾ (البقـرة: 9)، وقـال تعـالى:﴿وَمَـا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(البقرة:57)، وقـال تعالى:﴿ وَدَّتْ طَائِفَـةٌ مِنْ أَهْـلِ الْكِتَـابِ لَـوْ يُضِـلُّونَكُمْ وَمَـا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾(آل عمران:69)، وقـال تعالى: ﴿انظُـرْ كَيْـفَ كَـذَبُوا عَلَى أَنفُسِـهِمْ وَضَـلَّ عَنْهُمْ مَـا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾(الأنعام:24)، وقال تعـالى:﴿ وَلَا تُجَـادِلْ عَنْ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾(النساء:107)

إلى آخر آيات القرآن الكـريم الكثـيرة الـتي تنعى إلى هؤلاء المتعـاظمين أنفسـهم وتبشـرهم بالخسـارة الأبديـة يـوم توضـع مـوازين الأعمـال والحقـائق، فيجـدون كفتهم فارغــة من كــل خــير، ولا يجــدون في كفتهم إلا جســدا منطويـا هـزيلا قـد عبـدوه من دون اللـه، ولا يجـدون إلا ضميرا واحد من الضمائر المنفصلة حجبهم عن كـل خـير،

قــال تعــالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُــهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِــرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾(المؤمنون:103)

الفرح بالهيئة والخلقة والجمـال والزهـو بهـا من أول ما يولد في الإنسان من فرح حين يبصر وجهه في المــرآة لأول مرة، ويتصور أنه بالمرآة اسـتطاع أن يعـرف نفسـه، وأن المرآة التي أحاطت بـه واختصـرت حقيقتـه في تلـك الصورة التي قدمتها له هي التي عرفتـه حقيقتـه الـتي مـا كان له أن يعرفها لولا جوهرها الصقيل.

ومن ذلك الحين تبدأ الأخطاء يتلو بعضها بعضـا، يزهـو بنفسه، ثم يقارن نفسه بغيره، ثم يحتقر غيره، ثم يصــنف النــاس بحســب صــورهم وألــوان الأصــباغ الــتي تطبــع وجوههم، ثم يبـدأ التميـيز العنصـري، ويبـدأ حـرب الألـوان للألوان،وتبدأ الدراسات بحوثها لتعمق الفوارق بين البشــر والأجنــاس بحســب هيئــة الشــعر ولــون البشــرة وحجم الجمجمة وطول القامة أو قصرها، وبانتهائهم تبدأ النزغات النازيــة والفاشــية والقوميــة لتنفخ من بــوق الجســد كــل شعارات التمييز بين خلق اللـه، وتتخـذ من الجسـد محـور كل ذلك الصراع الذي لا ينتهي إلا ليبدأ بشكل آخر.

نعم، يمكن أن نجزم حذرين بانتفاء التميـيز العنصـري وانتهاء زمنه في ظل كثير من القوانين الحديثة، ولكن من يستطيع أن يجزم بانتفـاء ذلـك التميـيز من قلـوب النـاس ومشاعرهم وهم لا يزالون يتصورون الإنسـان قالبـا طينيـا يتخذ ألوانا وأشكالا مختلفة، وطبيعتهم البشرية تأبى ألا أن تفرق بين ألوان الخزف وأنواع الفخار.

وتعظيم الجسد وحصر الإنسان في قالبه الطيـني هـو الذي تفنن مصممو الأزياء الحديثـة في اسـتغلاله، فتففنـوا

في تعرية الجسد أكثر مما تفننوا في ستره، والقرآن الكريم في إشاراته المطلقة التي تتحدى حجاب الزمن يخبرنا عن دعاة العري المحدثين الذين يدعون إلى العري بكل الوسائل، ويطبقونه في جميع المستويات، ويكادون يفرضونه على العقول فرضا لينزعوا تلك الغلالة الرقيقة من الحياء التي لا زالت تكسو وجوه الناس، ويبين أن مصدر ذلك ليس طبيعة بشرية وإنما هي فكر شيطاني غريب عن طبيعة الإنسان، قال تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (لأعراف:27)

والدليل على غرابة التعري على طبيعة الإنسان وأنه إيحاء شيطاني لم يكن الإنسان لينتبه له لولا تلك الوساوس الشيطانية هو أن آدم عليه السلام وزوجه سارعا إلى ستر عورتهما بورق الجنة مع أنه لم يكن معهما من البشر سواهما، وهما يمثلان الفطرة النقية التي يحاول الشيطان أن يخرج منها الإنسان، قال تعالى: ﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾(الأعراف:22)، بل إن الآية تشير إلى أن كشف العورة أول عقوبة عجلت للإنسان لمخالفته الأمر الإلهي.

وفكر التعري هو نفس الفكر الذي يدعو إلى تغيير خلق الله، والذي يتجلى في عمليات التجميل الكثيرة، وأصناف المساحيق التي أصبحت تجارة رائجة في عصرنا

تزاحم الغذاء والدواء، وتعتبر ضرورة من ضرورات العصر كضرورة المأكل والمشرب.

والقرآن الكريم يخبرنا أن ذلك أيضا من إيحاءات الشيطان، وأنه ليس من الفطرة الإنسانية النقية، قال تعالى مخبرا عن وعد الشيطان: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ (النساء:119)،وعن ابن مسعود أنه قال:(لعن الله الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله عز وجل، ثم قال: ألا ألعن من لعن رسول الله ﷺ)

وهذا التعلق بالجسد والذي هو إيحاء من إيحاءات الشيطان وطبيعة من طبائعه كان أول ما ولد العداوة بين الإنسان والشيطان، عندما نظر الشيطان إلى ناره نظر استحسان وفرح، ونظر إلى طين آدم نظر استهجان واحتقار، فقال ـ كما نص القرآن الكريم ـ : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾(الأعراف:12)

وقد شبه الله تعالى هؤلاء الذين يقصرون نظرهم على أجسادهم، ويعتبرونها حقيقة وجودهم ونهاية أمرهم بالأخشاب المسندة، قال تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾(المنافقون:4)

فهم كالخشب المسندة لا يسمعون ولا يعقلون، أشباح بلا أرواح وأجسام بلا أحلام، أو هم كالخشب التي قد تآكلت فهي مسندة بغيرها لا يعلم ما في بطنها(1).

---

(1) انظر:الشوكاني:5/323 ،والقرطبي18/112 .

والقرآن الكـريم يخبرنـا كـذلك أن تعظيم الجسـد هـو الذي ولد التيه والفخر والزهو بـالنفس، والـذي ينشـأ عنـه الكبر بمختلف أشكاله، ويشبه ثقل معنى الجسد عند هـذه النفوس بأنها تكاد تخرق الأرض وهي تضرب عليها بشـدة، وكأنها تتحـداها، بـل تتحـدى السـماء أيضـا حين تجـرب أن تطاول الجبال،قال تعالى:﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾(الإسراء:37)

في ظـل هـذه التصـورات العنصـرية للجسـد يخبرنـا القرآن الكريم أن هذه الأجساد جميعـا والـتي يتيـه بعضـها على بعض سـلالة نفس واحـدة، ولـذلك لا معـنى للتمـايز بينها، ولا معنى لاعتبار بعضـها أكـثر تطـورا من بعض لأنهـا ورثت نفس الجينـات من أبيهـا آدم عليـه السـلام، قـال تعـالى:﴿ يَاأَيُّهَـا النَّاسُ اتَّقُـوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَـا وَبَثَّ مِنْهُمَـا رِجَـالًا كَثِـيرًا وَنِسَـاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(النسـاء:1)، وقـال تعـالى:﴿وَهُـوَ الَّذِي أَنشَـأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْـتَوْدَعٌ قَـدْ فَصَّـلْنَا الْآيَـاتِ لِقَـوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾(الأنعام:98)

وقـد ربـط اللـه تعـالى في الآيـة الأولى خلـق البشـر جميعـا من نفس واحـدة بـالأمر بتقـوى الأرحـام ووصـلها والمحافظـة على العلاقـات بينهـا ليشـير إلى تلـك الأخـوة الدموية التي تربط الغربي الذي يعيش في قمة أبراج الأنا بالبدائي في أدغال إفريقيا واستراليا، وأن الكل متسـاوون في القدرات الإنسانية والطاقات العقلية وأنواع المشاعر، وإنما يختلفون باختلاف الظـروف الـتي تحيـط بهم والبيئـة التي يعايشونها، والاختلاف بينهم اختلاف تكامـل لا اختلاف تمايز ولا اختلاف تضاد، بل هو مثل الاختلاف الموجـود في

جميع خلق الله.

قال تعالى يوضح هذه الحقيقة العظيمة التي لا تزال البشرية تائهة عنها وإن زعمت أنها ظفرت بها، وأن العصر الحديث أبدعها:﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات:13)

وقد كان ﷺ ينادي بهذه الحقيقة كل حين ويقرن بينها وبين المناسك والمشاعر المعظمة والأشهر الحرام، وكان من خطبته ﷺ في وسط أيام التشريق أن قال:(يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى)[1]

ثم توجه إلى الحضور الغارقين في أنوار وجهه وروحه ﷺ وقال: أبلغت؟، فقالوا جميعا بصوت واحد، وبنفس واحدة يؤكدون ما رأوه منه ﷺ وقد صحبوه في كل أحواله: بلغ رسول الله ﷺ ، قال: (ليبلغ الشاهد الغائب)

ويخبر ﷺ أن من فضل الله عليه أن دعوته ليست عنصرية، بل هي لكل البشر، وكل من دخل فيهم فهو منهم لا فرق بينه وبينهم، قال ﷺ :(أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي ولا أقوله فخرا بعثت إلى كل أحمر وأسود فليس من أحمر ولا أسود يدخل في أمتي إلا كان منهم وجعلت لي الأرض مسجدا)[2]

1() رواه أحمد 5/411.

2() رواه أحمد 3/304 (14314. وعبد بن حميد (1154) والدارمي: 1389 والبخاري: 335.

ويخبر أن الله تعالى لا ينظر إلى الأجسام والصور، ولكن ينظر إلى القلوب والأعمال،وأن قيمة الإنسان كقيمة كل وعاء، فهي فيما يصدر عنه أو يرشح منه أو يحويه، ولو وضع السم في إناء من ذهب لم ترفع عنه صفة السمية،قال ﷺ : (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)[1]

وكان ﷺ يأمر بطاعة كل من تولى على المسلمين إن توفرت فيه شروط الطاعة ولو كان أسود مجدعا، قال ﷺ :(إن أمر عليكم عبد مجدع أسود يقودكم بكتاب الله تعالى فاسمعوا له وأطيعوا)[2]

وكان ﷺ لا تشغله الوظائف الكثيرة التي أناطها الله بها عن السؤال عن البسطاء من المسلمين دون تفريق بين سودهم وبيضهم، ففي الحديث أن أسود رجلا أو امرأة كان يقم المسجد، فمات ولم يعلم النبي ﷺ بموته، فذكره ذات يوم فقال:ما فعل ذلك الإنسان؟، قالوا: مات يا رسول الله، قال: أفلا آذنتموني؟، فقالوا:إنه كان كذا وكذا قصته قال: فحقروا شأنه قال: فدلوني على قبره، فأتى قبره فصلى عليه[3].

وكان ﷺ يتابع أصحابه ويربيهم على هذه الأخوة، ويبين لهم نوع العلاقة التي ينبغي أن تربط بينهم ولو كان بعضهم عبيدا وبعضهم سادة، عن المعرور بن سويد قال: مررنا بأبي ذر بالربذة، وعليه برد وعلى غلامه مثله، فقلنا:

1() رواه أحمد 2/484 (7814) وفي 2/539 (10973) ومسلم: 8/11.

2() رواه الحميدي (359) وأحمد: 6/402.

3() رواه أحمد 2/353 (8619)، والبخاري: 458.

يا أبا ذر لو جمعت بينهما كانت حلة، فقال: إنه كان بيني وبين رجل من إخواني كلام، وكانت أمه أعجمية، فعيرته بأمه، فشكاني إلى النبي ﷺ فلقيت النبي ﷺفقال: يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية قلت: يا رسول الله، من سب الرجال سبوا أباه وأمه قال: يا أبا ذر، إنك امرؤ فيك جاهلية، هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم[1].

وكان ﷺ يشدد عليهم الترهيب إن أخلوا ببعض حقوق تلك الأخوة، وإن كان في أمور كانت طبيعية بالنسبة لأذهان ذلك العصر، عن أبي مسعود الأنصاري قال:كنت أضرب غلاما لي، فسمعت من خلفي صوتا:اعلم أبا مسعود، لله أقدر عليك منك عليه، فالتفت، فإذا هو النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، هو حر لوجه الله تعالى قال: أما إنك لو لم تفعل للفعتك النار أو لمستك النار[2].

وليعمق القرآن الكريم هذه الحقيقة في النفس بغض النظر عن آثارها الاجتماعية يخبرنا عن حقيقة الإنسان كل إنسان، وهي أنه روح وجسد، روح هي الأصل، وجسد هو مطية لهذه الروح، والمطية لا يراد منها إلا أن تحمل راكبها وتبلغه غايته، ولا يراعي فيها صاحبها ـ إن خير ــ إلا قدراتها وتحملها،قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍفَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(الحجر:28،

1() رواه عبد الرزاق (17965)، وأحمد 5/158 (21738) والبخاري: 1/14 (30).

2() رواه أحمد 4/120 (17215) والبخاري في الأدب المفرد 171 ومسلم 4319.

وكل لفظ في هذه الآية ينطق بفضل الروح على الجسد، فبينما وصف الجسد بكونه من صلصال، وهو ـ كما قال الكسائي ــ الطين المنتن، وهو مأخوذ من قول العرب: صل اللحم وأصل، إذا أنتن.

وهو من حمأ، وهو الطين الأسود المتغير، ثم أكدت كل تلك الروائح المتغيرة بوصف المسنون، وهو ـ كما قال الفراء ــ المتغير[1] في نفس الوقت نسبت الروح إلى الله، ولم تنفخ في الجسد إلا بعد تسويته، لم يؤمر بالسجود إلا بعد نفخها.

والآية التي ورد فيها الحديث عن بسطة الجسم، والتي اعتبرتها أحد أسباب الأفضلية لم تذكر مطلقة بل قدمت فيها بسطة العلم على بسطة الجسم، ولم تذكر بسطة الجسم إلا للحاجة إليها، فالقائد يحتاج إلى طاقات جسمية كافية تؤهله للوظيفة التي تناط به، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنْ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:247)

ولعله لأجل ذلك كان موسى عليه السلام كما وصفه رسول الله ﷺ عندما رآه حين أسري به، فقال: (موسى آدم طوال كأنه من رجال شنوءة بينما عيسى عليه السلام جعد مربوع)[2]، لأن الرسالة التي كلف بها لم تكن

1() الشوكاني:3/185.

2() رواه البخاري 4/141 (3239) و4/186 (3396) ومسلم 1/105

تستدعي تلك البسطة.

ولهذا كان ﷺ يدعو ويربي أصحابه على اعتبار بسطة العلم والعقل لا بسطة الجسم، وقد روي عن ابن مسعود أنه كان يجتني سواكا من الأراك، وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ : مم تضحكون؟ قالوا: يا نبي الله من دقة ساقيه، فقال:والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد[1].

ولكن القرآن الكريم والتوجيهات النبوية ــ مع نهيها عن تعظيم الجسد والفرح به واعتباره حقيقة الإنسان ومحور وجوده ـ لا تأمر باحتقاره أو التهوين من شأنه، بل تأمر عكس ذلك باحترامه، ولكن باعتبار صورته من الله، فمن أسماء الله تعالى المصور، وتعظيم الاسم يستلزم احترام مقتضاه، وهذا الاعتبار يقي الإنسان مخاطر التيه بالجسد واستشعار التميز به عن غيره، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ﴾ (الأعراف: 11)

ولهذا نهى النبي ﷺ أن يضرب الإنسان على وجهه، وعلل ذلك بأن الله خلق كل إنسان على صورة آدم عليه السلام، واحتقار صورة أي إنسان أو إهانتها إهانة لأبينا آدم عليه السلام، قال ﷺ : (إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه ولا يقل: قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك، فإن الله

(338).

1() رواه أحمد 1/420 (3991)

عز وجل خلق آدم على صورته)[2]

ونظر الإنسان إلى الجسد بهذا الاعتبار يجعله يرى الحسن في كل صورة، لأن القاعدة التي ينطلق منها هي أن الله هو أحسن الخالقين، كما ورد بذلك وصفه في خطاب إلياس عليه السلام لقومه، قال تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾(الصافات:125)، وكما ورد وصفه كذلك به عند تفصيل خلق الإنسان كل إنسان، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾(المؤمنون:14)

ومادام ذلك هو وصف الله فإن كل ما يصدر عنه من خلق حسن وجميل لا عيب فيه ولا نقص ولا فطور،قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (السجدة:7)، والإنسان من مخلوقات الله، فلذلك كان في أحسن تقويم:﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين:4)

والألف واللام تفيدان استغراق جنس الإنسان في كل العصور، وكل الأماكن، وبكل الألوان، وكل الأشكال.

ولهذا نهى النبي ﷺ أن يسخر من أي لون أو شكل لأنه سخرية من خلق الله، ومن سخر من خلق الله فكأنما سخر من الله أو اعترض على الله في خلقه، ولهذا عظم ﷺ ما فعلته عائشة، حين وصفت امرأة بالقصر بالإشارة دون اللفظ، قالت عائشة: حكيت للنبي ﷺ رجلا فقال ما يسرني أني حكيت رجلا وأن لي كذا وكذا قالت: فقلت:يا رسول الله إن صفية امرأة، وقالت

2() رواه أحمد 2/347 (8556) ومسلم 6747.

بيدها هكذا، كأنها تعني قصيرة، فقال: لقد مزجت بكلمة لو مزجت بها ماء البحر لمزجه[1].

وزيادة على ذلك كله يخاطب القرآن الكريم برقة وحنان الذين تعذبوا بأجسامهم وأشكالهم ونفاهم الخلق لدمامتهم بأن حسن غيرهم الذي يتيهون به عليهم لا يغني عنهم شيئا إن جاء أمر الله، لأن الله أهلك من هو أحسن منهم منظرا وأجمل متاعا، قال تعالى:﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾ (مريم:74)

ويعزيهم كذلك بأن الألوان التي يحملونها على وجوههم مجرد ألوان مستعارة ستتغير يوم القيامة إلى ألوان نهائية، أو هي مجرد براقع، واللون الحقيقي هو لون الروح، فلذلك لا ينبغي للأسود أن يحزن لسواده، ولا للأبيض أن يفخر ببياضه، كما لا يفرح من يضع قناعا على وجهه بلون قناعه، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (آل عمران: 107)

ففي القيامة تنزع جميع الأقنعة وتظهر الصور على حقيقتها كما قال تعالى :﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(ق:22)

وقد تكرر هذا الوصف في آيات مختلفة جامعا بين أوصاف وجوه المؤمنين ووجوه الكافرين أو مفردا أحدهما عن الآخر، قال تعالى في وصف وجوه الذين كذبوا على

1() رواه أحمد 6/128 وفي 6/136 و206 وأبو داود 4875 والترمذي 2502.

الله: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (الزمر:60)

وشبه سواد وجوههم بقطع الليل المظلم، فقال تعالى:﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنْ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (يونس:27)

والسواد في الآخرة ليس سوادا طبيعيا، قد يتأقلم معه صاحبه، بل هو سواد الحزن الدائم والهم المقيم، قال تعالى: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَة(عبس:40، 41)، قال البغوي في تفسيرها:سواد وكآبة الهم والحزن(1).

وقال تعالى يبين هذا اللون النفسي الذي يغشى وجوه أهل النار: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ(القيامة:24)، قال الشوكاني: أي كالحة عابسة كئيبة(2).

ويبين بشاعة منظرهم وشفاههم التي كانوا يتفننون في تمطيطها في الدنيا، وملئها بالسخرية من خلق الله، وكيف يئول مصيرها بقوله تعالى ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾(المؤمنون:104) قال البيضاوي: الكلوح تقلص الشفتين عن الأسنان(3).

أما وجوه المؤمنين يوم القيامة فهي وجوه مستنيرة مسفرة ناضرة ولو كانت في الدنيا سوداء كالحة مظلمة،

---

(1) البغوي1 /340.

(2) الشوكاني:5/476.

(3) البيضاوي:1/168 .

قال تعالى في وصف وجوه المؤمنين:﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ (المطففين:24) فهي نضرة حسية تنبئ عن رضى نفسي عميق.

وكل أوصاف القرآن الكريم لوجوه المؤمنين في الجنة يقترن فيها الحسن الحسي بالرضا والجمال النفسي، قال تعالى:﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴾(عبس:39)، وقال تعالى:﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾ (القيامة:22)، وقال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (يونس:26)

وهذا الاعتقاد يجعل المؤمن غير مبال بلونه الدنيوي، ولا هيئته الدنيوية، وترفع عنه رداء الكبر بهما، أو الفخر والتطاول بهما على الخلق، وتجعل فرحه إن فرح بهما فرح المستشعر بفضل الله عليه، وهو فرح يسلب عنه كل ما يسيء إلى غيره أو يسيء إلى نفسه، ولهذا كان ﷺ يقول في دعائه:(اللهم أحسنت خلقي فأحسن خلقي) (1)

وفي هذا الدعاء أدب عظيم منه ﷺ، حيث قدم شكر الله على الطلب، وشكر الله على ما منه وما لا يمكن تغييره، وسأل الله توفيقه لما طلب منه.

وهذا الدعاء الذي ورثناه منه ﷺ يختصر في إيجاز موقف المؤمن من جسده، فهو نعمة بأي صورة كان، والمؤمن غير مطالب بتغييره، بل هو مطالب بالرضى به وحمد الله عليه وعدم الإعجاب بأي حسن قد يصرفه عن حقيقته أو وظيفته في هذا الوجود، فكل من فرح بغير

(1) رواه أحمد 6/68.

الله سيحزن، وكل من رضي بغير الله سيسخط، وكل من نسي الله سينسى نفسه وحقيقته وسيختصر وجوده في قالب طيني سرعان ما يعود إلى أصله، قال تعالى:﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ﴾ (الحشر:19)

وقد آلم الشعراء ما رأوه من تعظيم البشر للجسد وإكرامهم له مع الغفلة عن حقيقة الإنسان فصاح المعري بقوله:

لا تكرموا جسدي، إذا ريب المنون، فلا فضيلة
كالبرد كان على حتى إذا فنيت بشاشته
أرواحنا ظلمت، فتلك درس، خوين من

ومن قبله قال دعبل الخزاعي:

وما حسن الجسوم إذا كانت خلائقهم

وبعدهما قال البستي ناصحا:

يا خادم الجسم كم لتطلب الربح في ما
أقبل على النفس فأنت بالنفس لا

واتخذ شاعر آخر أسلوبا علميا كالأسلوب الذي تنتهجه تلك الدراسات لتزرع الفوارق بين البشر فأخذ يعدد عيوب هذا الجسد الذي يتيه به الخلائق ويتكبرون ويقاتل بعضهم بعضا:

يا مظهر الكبر إعجابا انظر خلاءك إن النتن
لو فكر الناس فيما في ما استشعر الكبر شان
هل في ابن آدم غير وهو بخمس من الأقذار
أنف يسيلَ وأذن ريحها والعين مرصة والثغر

يابن التراب ومأكول أقصر فإنك مأكول

وشـبه ذو الرمـة الجمـال الظـاهر السـاتر للشـين المختفي في ثيابه بالماء الخبيث الذي لا يغير خبثـه بيـاض لونه، فقال:

على وجه مي مسحة وتحت الثياب الشين لو
ألم تر أن الماء يخبث وإن كان لون الماء

وشـبه القـيرواني ذلـك بالسـرج الـتي تضـيء ولكنهـا تحرق، فقال:

سرج تلوح إذا نور يضيء وإن

لا تفرح إن رزقت قـوة ومنعـة، فهابـك الأعـداء، وجثـا بين يديك الأصدقاء.

لا تفرح، فـالفرح بـالقوة والمنعـة والتسـلط هـو أحـد أنواع الفرح المذموم في القـرآن الكـريم، كمـا تشـير إلى ذلك النصوص الكثيرة تصريحا وإيماء.

لماذا؟

أليست القوة هي الـتي تحمي المستضـعفين، وتنشـر الأمن، وتبني الحضارة، وتعمر الأرض؟

أليس البقاء للأقوى قاعدة من القواعد التي يفسر بها التاريخ كما تفسر بها الطبيعة والأشياء؟

لكن الفــرح بــالقوة غــير القــوة، كمــا أن الاســتمتاع بالتفرج على المباريات الرياضـية غـير ممارسـة الرياضـة، وذم الفرح بالقوة لا يعني ذما للقوة، بل يعني ذمـا لجـانب من جوانبها وأثر من آثارها.

أثر قد ينشأ عنه الظلم والاسـتعمار واسـتغلال الخلـق وتسـخيرهم واسـتعبادهم، وقـد ألغي الاسـتعباد في جميـع قوانين العالم، ولكن لا يـزال الخلـق إلى الآن عبيـدا تحت سلطة ما يسمى بالقوى العظمى، القـوى الـتي تـأمر بمـا تشاء وتنهى عمـا تشـاء، وتكيـل بكـل المكاييـل، ثم تطلب من المستضــعفين أن يمجــدوها ويحترموهــا ويســبحوا بحمدها لسبب وحيد هو أنها قوة عظمى.

والحروب العالميـة لا تعـدو كونهـا غليانـا لنـار القـوة،

ونشـوة الفـرح بهـا في الـروح الغربيـة باختراعهـا لأنـواع الأسلحة وفنون الدمار الشامل.

ومن الفوراق الكبرى أن الدول التي تسعى للحـد من هذه الأنواع من الأسلحة وتتغنى بالسـلام هي الـتي تملـك أكبر رصيد منها، بل تملك ما يدمر الأرض، ويمحي الأطلال التي يتركها دماره مرات كثيرة.

وقد ذكـر اللـه تعـالى أن عصـرنا هـذا ليس بـدعا في ذلك، وإنما هذا الفرح هو الذي حـال بين كـل قـوة عظمى أو صـغرى، بين الحضـارات الكـبرى أو القبائـل البدويـة البدائيـة البسـيطة، وبين قبـول الحـق، قـال تعـالى ضـاربا المثل بعاد: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْـتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْـرِ الْحَـقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (فصلت:15)

وهو الذي حـال بين أكـثر القـرى وبين طاعـة أنبيائهـا والإسلام لله، فكان فرحهم حائلا بينهم وبين كل خير، قـال تعـالى:﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَـانُوا أَشَـدَّ مِنْكُمْ قُـوَّةً وَأَكْثَـرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَـا اسْـتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْـتُمْ كَالَّذِي خَاضُـوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـالُهُمْ فِي الـدُّنْيَا وَالْآخِـرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (التوبة:69)

والقرآن الكريم يشير هنا إلى الدورات التاريخية التي تختلف فيها أسماء الدول والحضارات والشـعوب والقـوى ولكنها تتفق في مبادئها ونظرتها للحياة وتصـورها للوجـود ووظائفها فيه، فكلا من تلك الدورات يسـتمتع بنصـيبه من القوة والأموال، ويخوض فيه خوضا باطلا، والنتيجة النهائية التي تختم بها كل دورة هي الإحباط بكـل معانيـه الـدنيوي

والأخروي، والنفسي والاجتماعي.

والقوة الغربية ـ بهذا المفهوم ـ لم تصـدر في نزعتهـا التسلطية التي استعمرت بهـا العـالم وانتهبت بهـا خيراتـه وعقولــه أجيــالا طويلــة بالســلاح أو بالديموقراطيــة أو بالصناديق الكثيرة أو بالمسـاعدات إلا من روح رومانيـة لا تزال تجثم على عقولها ومصادر تفكيرها.

وفي الآيــة بشــارة عظمى للــذين تلظــوا بنــار هــذه القـوى، فمصـير الـذين اسـتعبدوهم هـو الإحبـاط الـذي لا يقتصر على الدنيا، وإنما يشمل الآخـرة، و أصـل الإحبـاط الحبط، وهو أن تكثر الدابة أكلا حتى ينتفخ بطنها، قال ﷺ: (إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم)[1] ، وكـأن هـذا اللفـظ يشـير بـذلك إلى أن هـذه القـوى سـتنتفخ وتمتلئ زهوا وتعاظما وتسلطا ثم تدمر نفسها بذلك التعاظم، كمـا تموت الماشية من كثرة أكلها.

وكلمـا ازداد تعاظمهـا، وازدادت ثقتهـا بنفسـها قـرب موعـد هلاكهـا كمـا قـال تعـالى:﴿ حَتَّى إِذَا أَخَـذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَـا أَمْرُنَـا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِـيدًا كَـأَنْ لَمْ تَغْنَ بِـالْأَمْسِ كَـذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(يونس:24)

والحصيد هنا، وإن كان يراد بـه في ظـاهر اللفـظ هـو النبات الذي حصد وقطع، إلا أنه يشير إشارة صــريحة إلى العمران والتكنولوجيا والثقافة وكل ما يزهو ويتصـور أثنـاء زهـوه أنـه لا يمـوت، وموتـه وحصـاده لا يحتـاج إلى تـدبير طويل بحسب ما تنص الآية، بل مجرد إتيان أمــر اللــه في

1() الحميدي (740) وأحمد 3/7 (11049) قال: حـدثنا سـفيان، عن ابن عجلان. ومسلم 3/100 (2385)

ليل أو نهار يكفي لذلك، وأمـر اللـه لا يتكـرر، وهـو أسـرع من لمح البصــر : ﴿وَمَــا أَمْرُنَــا إِلَّا وَاحِــدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَــرِ﴾ (القمر:50)

وقد عـالج القـرآن الكـريم هـذا الفـرح ووجهـه وقـوم اعوجاجه ببيان أن القوة لله وحده، فلا يستطيل أحـد على أحد، ولا يبغي أحـد على أحـد، لأن اللـه هـو وحـده القـوي وكل من عداه ضعيف مهما استطال بقوتـه، ولـذلك فـإن الـــذي يتســـلط على المستضـــعفين بقوتـــه لا يواجـــه المستضعفين وإنما يبارز الله تعالى بالمحاربة، وهـو آخـذه لا محالة، قال تعالى:﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَـدُّ قُـوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُم﴾ (محمد:13)

والقرآن الكريم يضرب الأمثلة الواقعيـة الكثـيرة على ذوبان تلك القوى أمام أمـر اللـه، قـال تعـالى:﴿ كَـدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَـرُوا بِآيَـاتِ اللَّهِ فَأَخَـذَهُمْ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَاب﴾ (الأنفال:52)

بل هو يـأمر بالسـير في الأرض والبحث في الآثـار، لا للتمتع بمناظرهـا أو التعجب من محاسـنها، وإنمـا للاعتبـار من مصير الظلمة الذين يدل عمـرانهم على مبلـغ قـوتهم لتأخذ من ذلك العبر، قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَـا أَكْثَـرَ مِمَّا عَمَرُوهَـا وَجَـاءَتْهُمْ رُسُــلُهُمْ بِالْبَيِّنَــاتِ فَمَــا كَــانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَــانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(الروم:9)

وهذا هو موقف القرآن من البحث في الآثار والتنقيب عنها ودراسة أحوال أهلهـا وأحـوال التـاريخ جميعـا، ولهـذا نهى النــبي ﷺ عن الــدخول إلى ديــار الظلمــة إلا بصــحبة

البكاء والخشوع، قال ﷺ :(لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم ما أصابهم)[1]

بـل ورد النهي عن الاسـتقاء بمـائهم أو اسـتعماله، فعندما نزل ﷺ بالحجر في غـزوة تبـوك وقـد كـان منـازل لثمـود، أمـرهم أن لا يشـربوا من بئرهـا ولا يسـتقوا منهـا، فقالوا:قد عجنا منها واسـتقينا، فـأمرهم أن يطرحـوا ذلـك العجين ويهريقوا ذلك الماء.

وليس هذا النهي من بـاب التحـذير من التلـوث الـذي قـد يضـر الصـحة، بـدليل إجازتـه أن يعلفـوا الإبـل ذلـك العجين، ولكن أنواع التلوث لا تقتصر على التلوث الظـاهر الـذي يـؤذي الجسـد، فهنـاك التلـوث الـذي يخـرب الـروح ويكدر الصفاء، والذي لا يراه إلا مجهر النبوة.

والقرآن الكريم يخبر أن الظالمين جميعـا، من أمهـل منهم ومن أخذ بذنوبه في الدنيا، سيكتشف هـذه الحقيقـة يـوم القيامـة، حقيقـة أن القـوي الوحيـد هـو اللـه تعـالى، ويـترك بيـان حـالهم للنفس لتتصـوره كمـا تشـاء، كيـف يسـتقبلون تلـك المعرفـة وذلـك الإدراك، لأن التعـابير لا يمكن أن تفي بتصوير هـذه الحقيقـة العظمى الـتي كـانوا ينازلونها الحرب،قال تعـالى :﴿ وَلَـوْ يَـرَى الَّذِينَ ظَلَمُـوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَـدِيدُ الْعَـذَابِ ﴾(البقرة:165)

وبعــد أن يــزرع القــرآن الكــريم في النفس هــذه الحقـائق، ويملؤهـا بالتواضـع يعـود ليؤسـس فيهـا القـوة

1() رواه مالـك الموطـأ (2119) و (الحميـدي) 653 وأحمـد 2/9 (4561).

الحقيقية، القوة التي هي نعمة من الله، فيفرح بها على أساس ذلك، قال تعالى مانا على عباده عند بيانه لأطوار خلقهم:﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾(الروم:54)

فهذه القوى التي تنص عليها الآية نعم من الله، وحق النعم أن تشكر ويحافظ عليها ولا يعصى بها ربها ولا يتسلط بها على الغير، أو بالاصطلاح القرآني أن يحافظ عليها باعتبارها أمانة ووديعة من الله، قال تعالى في الآية التي شملت كل أنواع ودائع فضل الله :﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ (الأحزاب:72)

ولهذا من كمال المؤمن أن يجمع بين القوة والأمانة ليستعين بقوته على أداء الأمانة، ويستعين بأمانته على حفظ القوة، قال تعالى :﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (القصص:26)

فالقوة وحدها بدون أمانة ظلم وعتو، كما أن القوة بدون رأي وحكمة عجز وخور، قال تعالى مخبرا عن المجلس الاستشاري لبلقيس مبينا أن القوة الجسمية وحدها لا تكفي بدون قوة الرأي والتدبير:﴿قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ (النمل:33)

ولذلك فإن القوة الحقيقية في المفهوم الشرعي تتكامل مع الأمانة والرأي والحكمة لتخدم الحق وحده، وبذلك تصبح من الأوامر الشرعية والتكاليف التي لا مناص

للمـؤمن من القيـام بهـا، قـال تعـالى :﴿ وَأَعِـدُّوا لَهُمْ مَـا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِـهِ عَـدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾(لأنفال: 60)

لأن أي عمل يستدعي نوعـا من القـوة مناسـبا لأدائـه حتى أن ذا القرنين طلب عند بنائه السد أن يمـدوه بقـوة، تعالى :﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَـلْ بَيْنَكمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً ﴾ (الكهف:95)

وهنا نرى أدب ذي القرنين حين قدم فضـل ربـه على طلب المعونة، فالقرآن الكريم ضرب المثل بذي القـرنين عن المؤمن القائد القوي.

والله تعـالى أمـر بتوجيـه قوانـا نحـو الأخـذ بالتكـاليف والتقيد بها والتمسك بحبلها لأنهـا علامـة القـوة الحقيقيـة، ولا يمكن أن تؤدى أداء مثاليـا إلا بـالقوة، قـال تعـالى عن موسى عليه السلام عندما أعطاه ألواح التـوراة: ﴿ وَكَتَبْنَـا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِـيلاً لِكُـلِّ شَـيْءٍ فَخُـذْهَا بِقُـوَّةٍ وَأْمُـرْ قَوْمَـكَ يَأْخُـذُوا بِأَحْسَـنِهَا سَـأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾(الأعراف:145)

وأمر يحي عليه السلام بنفس الأمر،قـال تعـالى :﴿ يَـا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾(مريم:12)

ولعل في تخصيص موسـى ويحي ــ عليهمـا السـلام ـ بالأمر بأخذ الكتاب بقوة وشدة وحـزم يشـير إلى أسـلوب تعامل بني إسرائيل مع أنبيائهم وأوامر ربهم، وهو أسلوب الاستهزاء والهزل والتلاعب ومحاولة الاحتيال على أحكـام الله، وهو أسلوب صادر عن تصورهم لله الذي يمتزج فيـه الدين بالعنصرية والـذهب والأهـواء، ولـذلك وردت الآيـات

الكثيرة تخبر عن أمر الله تعالى لهم بالأخذ بالكتاب بقوة حتى أن الجبل رفع فوقهم كأنه ظلة، قال تعالى :﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأعراف: 171)

ولكنهم مع ذلك لم يرتدعوا ولم ينزجروا لأن شراب العجل الذي يسري في قلوبهم ويغذيهم بحب الذهب يحول بينهم وبين الطاعة ولو أرادوا الطاعة،قال تعالى :﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمْ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(البقرة:93)

وليس أمر أخذ الكتاب بقوة خاصا ببني إسرائيل بل هو عام في كل نفس استهانت بأمر ربها وتسلطت نفسها على عقلها، وتلاعبت أهواؤها بحقيقتها، لأن الجذور التي تنمو من استحلاء المعاصي تحتاج إلى طاقة كبيرة لتقلعها، ولهذا وضع الإصر على بني إسرائيل وشدد عليهم رحمة بهم، وإصلاحا لهم، كما شدد على منتهك الحرمات بأنواع الكفارات المشددة ليعيد لنفسه توازنها ويعيد لعقله سلطته على نفسه.

ولهذا فإن المؤمن يزداد قوة بإيمانه وبتسليمه لله وطاعته له واحتمائه بكنفه، وإيمانه لا يحول بينه وبين ما ينعم به من قوة، وإنما يوجهها ويزيدها ويرقيها، قال تعالى في خطاب نوح لقومه: ﴿ وَيَاقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (هود:52)

وهذه القوة التأييدية هي التي تجعل المستضعفين في الأرض قوى يحسب لها ألف حساب لأنها قوى لا تقهر، قال تعالى مخبرا عن الثلة المستضعفة التي كانت مع رسول الله ﷺ كيف كانت، وكيف صارت في كنف الله:﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمْ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الأنفال:26)

ويوم بدر كان المؤمنون فئة قليلة، وكان النبي ﷺ يراهم أمامه حفاة عراة جياعا فلا يرسل بطلب التموين، ولا يحزن لذلك، بل يرفع يديه يجأر إلى الله بقوله:(اللهم إنهم حفاة فاحملهم، اللهم إنهم عراة فاكسهم، اللهم إنهم جياع فأشبعهم)[1]

يقول الراوي مخبرا عن أثر هذا الدعاء العظيم: (ففتح الله له يوم بدر، فانقلبوا حين انقلبوا وما منهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين واكتسوا وشبعوا)

وقد ذكر الله ذلك المشهد، وأمر بأخذ العبرة منه، فليس هو بالمشهد الخاص بأهل بدر، قال تعالى :﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُوْلِي الْأَبْصَارِ﴾ (آل عمران: 13)

وقبل ذلك قال الله تعالى لموسى عليه السلام وهو في بلاط الحاكم الذي تصور نفسه إلها وخضع له الكل سجودا : ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾(طه:68)

1() رواه أبو داود (2747)

والقاعـدة الـتي يغرسـها القـرآن الكـريم في القلـوب المؤمنة به بصيغة المتكلم من الله تعالى هي الوعد الـذي يزرع في المؤمن القوة التي لا تقهر قوة الله تعـالى،قـال تعالى :﴿ إِنَّا لَنَنصُـرُ رُسُـلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُـوا فِي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾(غافر:51)

ولهذا ينهانا اللـه أن نحـزن لأننـا مستضـعفون أو لأننـا منهزمون أو لأن غيرنا أقـوى منـا، لأن المـؤمن مـادام مـع الله فهو الأقوى دائما، قال تعـالى :﴿ وَلَا تَهِنُـوا وَلَا تَحْزَنُـوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾(آل عمران:139)

ولهذا فإن الله تعالى ينهانا عن الفرح البسيط الساذج بقوانـا الضـعيفة المحـدودة، والـتي سـتنقلب أحزانـا عنـد زوالها كأحزان الملاكم العجوز الذي يبكي كلما مسـه أحـد بسوء لأن يديه اللتين كانتا شعاره ورمزه وحقيقته قد زال عنهمـا تأثيرهمـا كمـا تطـاير عن شمشـون شـعره، ومـع شعره تطايرت قوته.

وهو يأمرنا بدل ذلك الفرح البسيط الزائل بفـرح دائم كامل ممتد هو الفرح بقوة الله، نستمد منها كل قوة وكل عزيمة وكل إرادة، ولا نستشعر معها أي ضعف.

العقل

الفرح بالعقل فرح متطور عما قبله، لأنه يكون في فترة النضج للأفراد أو للأمم، بخلاف الفرح بالهيئة أو القوة فإنه يكون في فترة الطيش والمراهقة.

والقرآن الكريم يعبر بالعقل عن القوة المتهيئة لقبول العلم، أو للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة، ومن ذلك قول الإمام علي :

رأيت العقل فمطبوع
ولا ينفع إذا لم يك
كما لا ينفع وضوء العين

وهو الميزة التي ميز الله بها الإنسان عن كثير من خلقه، ولهذا مجده الإنسان شعرا ونثرا، يقول المتنبي:

لولا العقولُ لكان أدنى إِلى شرفٍ

ولكن البشر مع ذلك التمجيد المعنوي للعقل لم يعطوه حقه من التقدير المادي الواقعي، وكأن الشعراء المعبرين عن هذا الواقع المتأسفين عليه متفقون على ذلك البخس لحق العقل، يقول المتنبي:

وذو العقلِ يشقى في وأخو الجهالةِ في

ويقول الشافعي:

لو كنتَ بالعقلِ تعطى لما ظفرتَ من
رزقتَ مالاً على جهلٍ فلستَ أولَ مجنونٍ

ويقول الآخر:

سبحانً منِ أنزلَ   وميزَ الناسَ مشنوءاَ
فعاقلٌ فَطِنٌ أعيثْ   وجاهلٌ خَرِقٌ تلقاهُ
كأنه من خليج العرب   ولم يكنْ بارتزاقِ

ويقول المعري:

في هذهِ الدنيا   والعاقلُ المسرورُ

وينحى الأبيوردي باللائمة على العقل باعتباره سبب هموم الإنسان فيقول:

إِذا قَلَّ عقلُ المرءِ   ومن لم يكن ذا مُقْلةٍ

والعقل الذي يتحدث عنه هؤلاء الشعراء، والذي قد يتألم صاحبه ويشقى ويلاقي العنت من الخلق هو العقل الذي يعقل صاحبه عن تصور ما لا يحق أو فعل مالا يليق مراعاة للخير، وحرصا على الحق، أما العقل الذي هو مجرد وسيلة وآلة، والذي يأخذ حكم الوسائل والآلات، فيستخدم للخير والشر، وينصر الحق والباطل، ويستخدم أحبولة لأغراض النفس، وشباكا لصيد الشهوات فهو العقل المصرح بذمه في القرآن الكريم، والمصرح بذم الفرح به.

ومن أخطار هذا الفرح الاستبداد بالرأي وعدم الإذعان للحق، واستغلال طاقة العقل في الكيد والخديعة وإنشاء أفكار الضرار التي تزاحم الدين الحق، قال تعالى :﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون﴾(غافر:83)

ويخبر تعالى عن سليمان عليه السلام أنه لم يقبل الهدية التي أرسلت له لأنها كانت من إرسال عقل مخادع يريد أن يشتري نبيا ببضاعة مزجاة، فلذلك اشتد غضب

سليمان من ذلك العقل ومن تـدبيره، قـال تعـالى :﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَـا آتَـانِي اللَّهُ خَيْـرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَـدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُـونَ﴾ (النمـل:36)، لأن قـوم سبأ أرادوا أن يظهروا بعض ما أوتوا لسليمان ليرشوه بـه، ولكنه نظر إلى ما أنعم الله عليه، فلم يجد هديتهم تساوي شيئا أمامه.

وهـذا العقـل الـذي يفـرح بـه صـاحبه عقـل مـذموم، وصاحبه مخادع قبل أن يكون مخادعا، فهـو يعامـل بعكس مقصـوده، قـال تعـالى عن المنـافقين: ﴿ يُخَـادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُـوا وَمَـا يَخْـدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَـهُمْ وَمَـا يَشْـعُرُونَ﴾ (البقـرة:9)، وقـال تعـالى :﴿ إِنَّ الْمُنَـافِقِينَ يُخَـادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ (النساء: 142)

و العلم كالعقل ليس خيرا مطلقا ولا شرا مطلقا، بـل هو بحسب صاحبه، ولذلك ورد في القرآن بصيغتي المـدح والذم، ونهي عن الفرح به لذاته وتعظيمه لذاته لمـا ينجـر عن ذلك الفرح والإعجاب من مخاطر ربما لم يدرك عصر من العصور منها ما أدركه هذا العصـر، قـال تعـالى ضـاربا المثـل بمن قبلنـا: ﴿ وَاتْـلُ عَلَيْهِمْ نَبَـأَ الَّذِي آتَيْنَـاهُ آيَاتِنَـا فَانسَـلَخَ مِنْهَـا فَأَتْبَعَـهُ الشَّـيْطَانُ فَكَـانَ مِنْ الْغَـاوِينَ﴾ (الأعراف:175)، فهذا العلم الذي جر صـاحبه إلى الغوايـة بسبب فرحه به وخلوده إلى الأرض كما عقب تعـالى على ذلك بقوله:﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَـا وَلَكِنَّهُ أَخْلَـدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَـعَ هَـوَاهُ فَمَثَلُـهُ كَمَثَـلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِـلْ عَلَيْـهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَـوْمِ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا فَاقْصُـصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الأعراف:176)

وهــذا المثــال يكــاد ينطبــق تمامــا على الكثــير من

اكتشافات هذا العصـر حيث تلهث البشـرية كـل حين وفي كل مجال، وحيث استغل العلم ليغذي ذلك اللهث الـذي لا ينقطـع، بـل اعتـبر مـا عـداه من العلـوم الإنسـانية مجـرد ثقافـات عامـة لا تمت بصـلة للعلم، ولـذلك اختـار القـرآن الكريم مثال الكلب ليشبه تلك الحيرة، قال القتيبي:(كـل شــيء يلهث فإنمــا يلهث من إعيــاء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث في حـال الكلال وحـال الراحـة وحـال المـرض وحال الصحة وحال الري وحال العطش. فضربه اللــه مثلا لمن كذب بآياته فقال: إن وعظتـه ضـل وإن تركتـه ضـل; فهو كالكلب إن تركته لهث وإن طردته لهث)

ويضـرب القـرآن الكـريم المثـل على ذلـك بطـاغيتين كـان الفـرح بـالعلم أحـد أسـباب طغيانهمـا همـا قـارون وفرعون :

أما قارون فأجاب الصالحين من قومه الذبن نهوه عن الفرح بما عنده بقولـه : ﴿ إِنَّمَـا أُوتِيتُـهُ عَلَى عِلْمٍ عِنـدِي ﴾ وعقب الله تعالى على ذلك بقوله:﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَـدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُـرُونِ مَنْ هُـوَ أَشَـدُّ مِنْـهُ قُـوَّةً وَأَكْثَـرُ جَمْعًـا وَلَا يُسْـأَلُ عَنْ ذُنُـوبِهِمْ الْمُجْرِمُـونَ﴾(القصـص:78) ليـبين أن علمـه ذلـك جهـل مـادام قـد صـرفه عن ربـه، وصرفه قبل ذلك عن نفسه.

أما فرعون فقد هاله مارآه في عصره من اكتشـافات واختراعات فظن أن اللـه يـدرك بـاختراع من الاختراعـات مثلمـا يفعلـون الآن عنـدما يريـدون البحث عن الـروح أو العالم الآخر من خلف المنـاظير والمجـاهر قـال تعـالى :﴿ وَقَـالَ فِرْعَـوْنُ يَاأَيُّهَـا الْمَلَأُ مَـا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْـرِي فَأَوْقِـدْ لِي يَاهَامَـانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَـل لِي صَـرْحًا لَعَلِّي

أطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنْ الْكَاذِبِينَ﴾(القصص: 38)

ولكن ذلك ليس خاصا بقارون أوفرعون فهما مجرد نماذج، ولهذا تأتي القاعدة العامة في قوله تعالى :﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر:49)، فتلك النعم، وذلك العلم الذي استدل به عليها مجرد فتنة وابتلاء.

والقرآن يشير هنا إلى خطر فتنة العلم، العلم الذي اتخذ في كثير من أحقاب التاريخ مبررا للإلحاد وغطاء للكفر وسبيلا للتنصل من التكاليف.

ولذلك فإن أول ما يبدأ به القرآن الكريم في تربيته للنفوس المؤمنة وتأمينها من فتنة العقل و العلم والحد من طغيانهما الناشئ من فرط الفرح بهما بيان أن ذلك العلم الذي تفخر به البشرية، والذي تعتبره نتيجة من نتائج عقولها الجبارة، عارية وليس ملكا، والعارية لا يفرح بها وإنما تستعمل للحاجة والضرورة، قال تعالى :﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(النحل:78)

فكما بدأ الإنسان أول خلقته جاهلا فكذلك يختم له بالجهل، قال تعالى :﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾(النحل:70)

فالإنسان محدود العلم من حيث مدة علمه التي لا تتجاوز فترة حياته القصيرة، والتي يزاحم مزاولته للعلم

فيها شؤون حياته الكثيرة، ومع ذلك فهو محدود نوعية العلم أيضا حتى أن معارفه التي لا تتجاوز حياته الدنيا قدتوصف بالجهل قال تعالى :﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُون يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾(الروم:7)

وقوانين الحياة الدنيا في جميع مجالاتها ليست هي قوانين الحياة الآخرة، فالذي فرح في الدنيا واختال زهوا بكونه طبيبا ملما بالأدواء وشفائها، قاصرا فكره على ذلك، سيصبح يوم القيامة بل بعد موته مباشرة جاهلا كغيره ممن ظن أنه تميز عنهم، لأن أجساد أهل القيامة لا تحتاج إلى دواء، فهم بين صحيح لا يمرض أو مريض لا يصح ولا يموت.

ولذلك فإن الحقيقة الأولى التي يقررها القرآن الكريم في النفس هي أن أكثر الناس لا يعلمون، وتلك القلة التي تعلم لا تعلم إلا قليلا،قال تعالى :﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾(الإسراء:85)

وبعد أن تستشعر النفس حقيقة جهلها، وتعلم أن جهلها أصل ثابت فيها، وأن ما تعرفه عارية لا ينبغي أن تفرح لها يعود القرآن ليؤسس فيها العلم الحقيقي ويشعرها بالكيفية التي ينبغي لها أن تنظر بها للعلم، وتفرح به من خلالها، فيبدأ ببيان أن العالم الوحيد في هذا الكون هو الله، وأن كل من أوتي علما فالله أعلم منه، قال تعالى :﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾(يوسف:76)

ولذلك فإن كل ما عداه متعلم منه ومستفيد منه، يقول تعالى مخبرا عن جواب الملائكة بعد أن رأوا ما

رزقه آدم من العلم:﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة:32)

وأول من يفعله من يعرفه هاته الحقائق :جهله وعلم الله واستفادته العلم من الله، هو أن يخضع متواضعا لله لا يهزه الزهو ولا يغره الفرح،قال تعالى :﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾(الإسراء:107)

وكل من خر ساجدا لله فإنه لن يستعبد خلق الله ولن يؤذيهم بعلمه، ولن يخترع الأسلحة النووية، ولا القنابل الجرثومية، ولن يجعل من البشر فئران تجارب يرضي من خلالهم أصناف شذوذه، وبعبارة قرآنية لن يقول للخلق: كونوا عبادا لي من دون الله، قال تعالى :﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾(آل عمران:79)

وأول ما يفعله العقل بأمثال هؤلاء هو أن يعقلهم، وأن يضبط جماح أهوائهم، وأن يحتل مكانه الذي أهله الله له لا يعدوه، وهو مكان شريف منيف، ولكن الله نفاه عن غير المؤمنين به ولو كانوا في التصورات البشرية قمما في الفكر والرأي والإبداع، لأن كل فكر يبعد عن الله هوى، وكل علم يبشر بغير الله وسواس، وكل رأي يحارب الله ضلالة.

فلذلك كل ما ورد في القرآن الكريم من وصف للكفار بأنهم لا يعقلون لا يراد به ذلك البدوي الجلف الغليظ الذي ناوأ النبي ﷺ فقط، وإنما يراد به كل ملحد أو

محارب لله ورسوله، ولو علقت على صدره النياشين، ونصبت له التماثيل، وترك خلفه أطنان الأوراق، لأن تلك الأطنان تنمحي جميعا أمام كلمة كفر واحدة يجحد بها الحق، ويناوئ بها أهله.

قال تعالى :﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:171)

وفي هذه الآية تشبيه بليغ للمؤمن الذي قد يكون محدود الثقافة ومع ذلك يخاطب الكفار الذين قد يكون منهم العلماء والباحثون وأهل الفكر فلا يسمعون إلا صوته، ولا يفهمون ما يقول، أوقد يضحكون مما يقول، فهم كالراعي الذي ينعق بالغنم والإبل فلا تسمع إلا دعاءه ونداءه ولا تفهم ما يقولا، لأن موجات الحديث مختلفة، وطريقة التفكير مختلفة، وبعد النظر متفاوت.

وكثيرا ما نرى عقلا جبارا يحل أعقد المعضلات الرياضية، أو عقل اقتصادي يحل أفتك أزمات مجاعة، أو عقل فيلسوف يقسم الشعرة بذكائه، ولكنه إذا ما حدث عن أبسط القضايا الإيمانية صعر خده ولوى عنقه، وقال: هذه قضايا هامشية، أو مسائل غير مطروحة،ورضي بأن يموت على إلحاد أو على إيمان لا وجود لأي أثر له في حياته.

ويشبه الله أمثال هؤلاء بالأنعام تشبيها صريحا في القرآن وفي مواضع كثيرة، بل يزيد في تفضيل الأنعام عليهم، يقول تعالى :﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (المائدة:22)، ويقول تعالى :﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ

بَلْ هُمْ أَضَلَّ سَبِيلًا﴾(الفرقان:44)

لأن هؤلاء الذين يتيهون بمعارفهم وصـنائعهم الدنيويـة البسيطة يوجد ما يماثلهـا في الحيوانـات الـتي لم تـدرس في الجامعـات، ولم تقـرأ الكتب، ولم تتلـق أي تـدريبات، فإن أي عنكبوت يتحدى أبـرع مهنـدس، وأي نملـة تتحـدى وزارة تموين، وأي نحلة تفـوز على جميـع خـبراء التغذيـة، بل أي نبات يفقه أسرار الجو كما لا يفقهه خـبراء الإرصـاد فيلبس لكل مناخ لبوسه.

وفي العقــل العملي، العقــل الــذي يرشــد للفضــيلة ويــدعو للخــير وينتهج نهج الحكمــة، ينفي اللــه عن غــير المتأدبين بفضائله اسـم العقـل، يقـول تعـالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾(الحجرات: 4)، ويقول تعالى :﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَـذُوهَا هُـزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾(المائدة:58)

والعقل العملي كالعقل النظري، كلاهما وجهان لعملة واحدة، فسلوك المرء العملي دليـل على عقلـه النظـري، وتفكيره النظري الذي قد لا يجسـر على التصـريح بـه هـو الهـادي لسـلوكه العملي، وهـؤلاء الـذين لم يحـترموا نبيـا رسـولا من اللـه إليهم، ولم يعرفـوا منزلتـه، ونـادوه كمـا ينادي بعضهم بعضا، وأولئك الـذين لم يحـترموا نـداء ربهم بالصلاة وجعلوه موضعا للندرة والنكتة كلاهمـا لاعقـل لـه، لأنهما لوكانا يعقلان لعرفا الله وعرفا الرسول وعرفا كيف يتعاملان مع الله والرسول.

ولهذا فإن المؤمن الكامل الإيمان، والإنسان المكتمل الإنسانية، هو من صفا جوهر عقله فأصبح محلا لكـل حـق ولكل خير، وليس ذلك إلا للمؤمن، ولهذا يقصر الله وصف

العقـل عليهم في نفس الـوقت الـذي يقلـل من عـددهم، قال تعالى :﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَـالُ نَضْـرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَـا يَعْقِلُهَـا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾(العنكبوت:43)

فآيات اللـه وأمثالـه لا يفهمهـا أو يعقلهـا إلا العـالمون أصحاب العقول،قال عمرو بن مرة: (مـا مـررت بآيـة من كتاب الله لا أعرفهـا إلا أحزنـني لأني سـمعت اللـه تعـالى يقــول: ﴿ وَتِلْـكَ الْأَمْثَـالُ نَضْــرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَــا يَعْقِلُهَــا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت:43)

وآيات الله ليس المراد بها آيات القرآن الكريم فقـط، بل هي كل آيـة في السـموات والأرض، قـال تعـالى :﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَـارِ لَآيَـاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران:190)

وأولو الألباب في هـذه الآيـة ليس المـراد بهم علمـاء الفلك أو الذرة أو الجيولوجيا فقط ممن عرفـوا كثـيرا من خبايا الكون، وإنما كل مؤمن عرف أن لهذه السموات ربـا وتوجه إليه بالعبادة، أما غـيره ممن اقتصـر على مشـاهدة الآية أو تحليلها، ولم يعبر منها إلا الله فيصـدق عليـه قولـه تعـالى: ﴿ وَكَـأَيِّنْ مِنْ آيَـةٍ فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُـرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾(يوسف:105)، وقوله تعالى :﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَـا مُعْرِضُـونَ﴾ (الأنبياء:32)

وقد ورد هذا اللقب أُوْلُوا الْأَلْبَـابِ في القـرآن الكـريم في ستة عشر موضعا كلها قاصرة على المؤمنين أصحاب العقول النيرة، و اللب هو العقـل الخـالص من الشـوائب، وسمي بـذلك لكونـه خـالص مـا في الإنسـان من معانيـه، كاللبـاب واللب من الشـيء، وهـذا يشـير إلى أن العقـول

الأخرى التي تتيه فرحا بنفسها ما هي إلا غلالة وقشرة ومظهر بسيط يستر العقل الحقيقي الذي جعله الله للكمل من عباده، والفرح بتلك القشرة والانشغال بها يحول بين الإنسان والترقي للكمال الذي سيصله حتما إن رجع إلى الله، وفرح بنعمة العقل المستعبد لله لا للنفس ولا للهوى ولا للشيطان.

الزينة

الزينة هي تلك المظـاهر الـتي تنبت من جـذور القلب المغـذى بمـادة الـتزيين، والـتزيين هـو نفخـة الفـرح الـتي يتلقاهـا القلب بحسـب قابليتـه واسـتعداده، ونـافخو مـادة الـتزيين مختلفـون ومتعـادون ومتناقضـون، منهم الناصـح الغـارق في نصـحه، ومنهم العـدو الموغـل في عداوتـه، ومنهم الأحمق الذي لم يستطع أن يميز نفسـه في إحـدى الطـائفتين، ومنهم المخـادع والمنـافق والمـراوغ، كمـا أن منهم المحب والحنون والوديع.

ومادة النفخ متعددة متضاربة، منهـا العسـل المصـفى والإكسير الأحمر والترياق الشـافي، ومنهـا السـم الزعـاق والموت الأسود والداء العضال.

وطريقة الفرح بنفخة التزيين تختلف صورها بـاختلاف ألـوان الابتسـامات وأصـوات القهقهـة وضـروب الـرقص والغناء.

والقـابلون لألـوان الـتزيين كالمعـادن المختلفـة المتناقضـة منهـا الجـوهر النفيس والـذهب الإبريـز، ومنهـا الحديد والزنك والرصاص.

بهـذه الصـور المتعـددة المتضـاربة يتحـدث القـرآن الكريم عن الزينـة والـتزيين ليرسـم الحقيقـة أمامنـا بكـل معانيها، ويصورها بكـل مشـاهدها لنختـار مـا يتناسـب مـع قابلية قلوبنا وجوهر استعدادنا.

ولكنه ـ كطريقته مع كـل شـيء نشـتغل بـه ونشـغل أنفسنا وتنسينا غمرة الفرح المتـدفق من شـرايين قلوبنـا

بماذا نشتغل وعما نشغل ـ ينهانا عن الفرح، ويأمرنا بإضفاء السكينة على قلوبنا وعقولنا لنراجع ذواتنا ونراجع الكون من حولنا ونراجع الحقائق التي ينطق بها هذا الكون، لأن الفرح ريح عاصف تقلع أشجار الفكر من عقولنا، ونشوة غامرة قد تلمس القلوب لمسا رقيقا وقد تجرحها فتصير كالمرآة المخدوشة تتشوه في عينها صور الأشياء.

أكثر ما ورد في القرآن الكريم من مادة زين ـ والتي تكررت في القرآن الكريم في ستة وأربعين موضعا ـ ورد بصيغة فعّل المشددة التي تعني أن هناك أطرافا ثلاثة ترتبط بالزينة هي: الزينة والمزين و المزين له، والقرآن الكريم تحدث عن هذه الأطراف الثلاثة وصنفها وبين عاقبة كل صنف منها.

ولا يمكن تصنيف الآيات القرآنية الواردة في ذلك بحسب هذه الأركان، لأن كل آية بإعجازها وعمقها وحيويتها تحوي كل الأركان، وتضم كل الأصناف وتخاطب كل النفوس.

وأكثر ما يشير إليه القرآن الكريم من مواضيع الزينة التي وضعت في القلوب ولم تجبل عليها هي زينة الحياة الدنيا، ويأتي التعبير القرآني عن هذه الزينة، وهو يحمل في كل كلمة منه ما يشير إلى السم الزعاق الذي تحويه هذه الزينة والهلاك العظيم الذي ينتظر الشاربين من ذلك السم، يقول تعالى :﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَاب﴾ (البقرة:212)

فأول لفظ في الآية هو (زُيِّنَ) ويشير بلفظه وروحه

إلى أن ذلك المزين قد كسي من الأثواب ووضع عليه من المساحيق ما أحاله حسنا وجميلا، وإن كان قبيحا ودميما، فالمزين ليس جميلا بالضرورة، ولهذا يبين القرآن الكريم كثيرا من مظاهر التزيين التي لا تتناسب مع كل الأذواق، ولكن القلوب المستعدة لذلك التزيين تتناسب معها وتفرح بها وتتعجب ممن لا يتذوق حلاوتها.

ومنها تلك القلوب التي أودعت فلذات أكبادها جوف الثرى مخافة أن تقتسم معها لقمة العيش أو مخافة السبة والعار، وهي تبتسم فرحا، وكأنها تخلصت من وزر ثقيل ينوء به ظهرها، قال تعالى :﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام:137)

ومنها التي استحلت ألسنتها الطافحة بألوان الخبث سب الله تعالى وكأنه حلوى لذيذة أو فاكهة شهية، وقد نهي المسلمون عن سبهم أو مناقشتهم في ذلك لأن حلاوة الكفر قد تشربتها قلوبهم وذاقت لذتها وتمكنت منها، وفرق كبير بين مجرد الكفر وبين الكفر المزين في القلب، ولهذا يكون أبعد الناس عن اتباع الرسل رجال الدين الذين استحلوا صناعة التدين وتمكنت من قلوبهم، قال تعالى :﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام:108)

ومنها القلوب المصرة العنيدة التي تحملت لأواء الشدائد وهي تقبض ألسنتها بشدة عن دعاء الله استغناء عن الله وترفعا عنه كما يقبض اللئيم يده عن الكريم

جسدا وتعاظما واستنكافا، قال تعالى :﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام:43)

ومنها القلوب التي ينقل القرآن الكريم عجب الهدهد منها، وهو الحيوان الصغير الضعيف صاحب الجمجمة الصغيرة والطاقة الفكرية الضعيفة حين رآها تعفر الثرى لمخلوق مثلها، لم يخطر على باله قط وهو الحيوان أن هناك من يبيع الله بأشعته الحارقة أو الدافئة، قال تعالى : ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾(النمل:24)

ومنها العقول التي اقتنعت بأحكام معينة، ثم تلاعبت في تطبيقها بما يحيلها صورا بلا معاني، وأجساما بلا أرواح، ومن هؤلاء : المشركون الذين ضموا إلى كفرهم تلاعبهم بالأشهر الحرم التي كانت بقية من بقايا الحنيفية التي جاء بها إبراهيم عليه السلام فحولوا شهرا عن شهرا مراعاة لمصالحهم القاصرة المحرمة التي لا تتحقق إلا بالإضرار بغيرهم، قال تعالى:﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (التوبة:37)

والخلاصة التي يعطيها القرآن الكريم في ذلك هي أن كل الانحرافات التي وقعت فيها الديانات والمذاهب والنفوس مزينة وليست زينة، فهي محسنة بأنواع الحلي والمساحيق والحلل، بينما تبرز الدمامة بكل مظاهرها والبشاعة بكل صورها لكل من انشغل بالحقيقة عن

المظهر،ولم تنسه نشوة الفرح الكاذب ما تخفيه الصور.

ولكن تمييز اللباس من البدن والحقيقة من المظهر في وسط ذلك الجو المغري لا يكون إلا للبصيرة الإيمانية النافذة التي كانت مركبة في عقول الذين آمنوا عندما مر بهم قارون، وهو في موكب الزينة يسلب الألباب وينشر الحسد والغبطة، والقرآن الكريم ينقل لنا بدقة صورة ذلك الموكب، وصورة النفوس التي كانت تلتف به، يقول تعالى :﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ (القصص:80)

والخلاف الذي وقع بين هذين الفريقين كما ينقله القرآن الكريم ليس في أصل الزينة، فكلا من المؤمنين والذين يريدون الحياة الدنيا يبصرونها وتشتهيها أنفسهم، لكن الفرق بينهما حصل فيما بعد الزينة وما خلفها، فالمؤمنون كانوا يشاهدون بعيونهم آثار تلك الزينة المؤقتة الملطخة بآلاف العيوب، ولعل أقلها فرح صاحبها بها وانشغاله بها عن ربه، بينما الذين يريدون الحياة الدنيا كانت أعينهم عميا عن إبصار المدى البعيد الذي يبصره المؤمنون.

ولهذا يصور القرآن الكريم الذين لا يؤمنون بالآخرة بصورة الأعمه المتردد الحائر بين نوازع نفسه الكثيرة المتناقضة، قال تعالى يصور هذه الحيرة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾(النمل:4)

وهذه الحيرة التي سببها الإدمان على الزينة الكاذبة تجعل على بصره غشاوة تحول بينه وبين اللجوء إلى

الحـق الـذي يبصـره ويعرفـه وتكـاد فطرتـه المخبـأة في سـراديب وجـوده تلمسـه، ولكن التزيينـات الكثـيرة المتناقضة تحـول بينهـا وبين الإمسـاك بـه، قـال تعـالى :﴿ وَعَــادًا وَثَمُــودَ وَقَــدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَــاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ (العنكبوت:38)، فهم مستبصرون بالحق مبصـرون لـه، ولكن التزيينـات الشـيطانية الـتي ألفتهـا قلـويهم جعلتهم مكتـوفي الأيـدي محاصـرين بـالأهواء لا يملكـون من أمـر أنفسهم شيئا.

ولهـذا يشـبه اللـه تعـالى أمثـال هـؤلاء بالسـائر في الظلمــات الــتي لا تعــدو ظلمــات التزيينــات الكثــيرة المتناقضة التي تحجب الرؤية عن البصر والبصيرة، بخلاف المـؤمن الـذي يهتـدي بصـقل مـرآة قلبـه عن أي التفاتـة تحول بين بصيرته وبين رؤية الدروب الصعبة التي تتحــرك فيها روحه.

فلـذلك كـان المـؤمن هـو الحي الحقيقي الـذي يـرى نفسـه وغـيره بينمـا حيـاة أولئـك الفـارين عن أنفسـهم المشغولين بصنوف التزيينات موت في صورة حياة، قــال تعالى :﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِـهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام:122)

وقد جاء الفعل في الآية مبنيا للمجهول ليترك صـاحبه محتارا في مصدر ذلك التزيين الذي غمر قلبه فرحة به.

ولذلك كل مـا ورد في القـرآن الكـريم مبنيـا من هـذا الفعل ورد في الزينة المنهي عن الفرح بها كقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَـإِنَّ اللَّهَ يُضِـلُّ مَنْ

يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾(فاطر:8)، وقوله تعالى :﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾(محمد:14)، وقوله تعالى :﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنْ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾(الرعد:33)

والقرآن الكريم يشير إلى بعض هؤلاء المزينين الذين لم يكن لهم من غرض إلا الغواية:

وأولهم إبليس عدو الإنسان الأول، قال تعالى ذاكرا الحوار الذي بدأت به خطة الشيطان في ضم الإنسان إلى حزبه:﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(الحجر:39)

وقد دل هذا التعبير على معرفة الشيطان بخصائص ونقاط ضعف عدوه الذي جبل على حب الزينة وحب اللذة وحب الجمال في أي صورة وفي أي تركيب، فهو يضعف أمامها ويكاد يتلاشى، قال تعالى :﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾(الأنعام:28)

والقرآن الكريم يشير إلى طريقة التزيين التي يمارسها والتي يقلب بها الحقائق ويخاطب كل إنسان باللغة التي يفهمها، وذلك في الوساوس التي كان يلقي بها إلى آدم عليه السلام كل حين، ومنها ما جاء في قوله تعالى :﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنْ الْخَالِدِينَ ﴾ (الأعراف:20)

وقوله تعالى :﴿ مَا نَهَاكُمَا﴾ يشير إلى أنه ربما كان يستخدم معهما وسيلة تأويل النص لتفريغه من محتواه، وكأنه يقول :إن الله ما نهاكما لأجل النهي، وإنما لأسباب أخرى منها أن تكونا ملكين أو تكونا خالدين، فإن أردتما برغبتكما أن يحصل لكما ذلك فلا بأس من أكل الشجرة.

أو ربما جاءهما من باب آخر وقال: إن الله الرحيم بكما ما كان ليمنعكما من هذه الشجرة وأنتما ضيفان عنده، فاتهما فهمكما ولا تتهما ربكما.

أو ربما جاءهما من باب آخر، وقال :إن النهي الذي صدر لكما من ربكما لم يكن نهيا مطلقا، بل هو مقيد بأكل جميع الشجرة لا بمجرد تذوق ما فيها.

أوربما قال لهما :إن النهي لم يكن عاما في جميع الأوقات، بل كان مخصوصا بأول دخولكما الجنة لعدم تناسب أكلها مع أجهزتكم الهاضمة حينذاك.

أو ربما قال لهما :لقد ورد النهي قبل نضجكما وصلابة يقينكما، أما بعد ذلك فلا تكليف بعد يقين ولا حركة بعد معرفة.

أو ربما جاءهم من أبواب أخرى نراها ونسمعها كل حين في محاولات التهرب من النصوص القطعية بألاعيب الألفاظ، والقرآن الكريم يشير إلى أن آدم لم يكن يعرف أمثال هذه المكائد، ولذلك حلف الشيطان له أنه لم يقل ذلك له إلا ناصحا صادقا، ولم يكن آدم يتصور أن هناك من يقسم على الله كاذبا فلذلك أكل من الشجرة، قال تعالى :﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنْ النَّاصِحِين﴾ (الأعراف:21)

ولذلك لم يكن خطأ آدم عليه السلام إلا خطأ المغتر

بالقسم لا خطأ المتجرئ على الله، قال تعالى :﴿ فَـدَلَّاهُمَا بِغُـرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَـا الشَّـجَرَةَ بَـدَتْ لَهُمَـا سَـوْآتُهُمَا وَطَفِقَـا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَـا عَنْ تِلْكُمَـا الشَّـجَرَةِ وَأَقُـلْ لَكُمَـا إِنَّ الشَّـيْطَانَ لَكُمَـا عَـدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (الأعراف:22)

والمؤمن كما ورد في الحديث: (غـر كـريم، والفـاجر خب لئيم)[1]، وكان بعض العلماء يقول: (من خادعنا بالله خدعنا)، وقد قال الشاعر:

إن الكريم إذا تشاء خدعته   وترى اللئيم مجربا لا يخدع

ولأجـل هـذا وردت النصـوص الكثـيرة تحـذر من كيـد الشيطان الذي لا يترك المؤمن حتى وهـو مشـتغل بعبـادة ربه يقرأ كلامه، ولهذا ورد الأمـر بالاسـتعاذة قبـل القـراءة في قوله تعـالى :﴿ فَـإِذَا قَـرَأْتَ الْقُـرْآنَ فَاسْـتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾(النحل:98)

بل إن النص يشير إلى الاستعاذة مطلقـا بـدون تقييـد بالقبلية أو البعدية ليبقى القارئ متقيا أثناء قراءتـه من أي وسوسـة أو تلـبيس شـيطاني يصـرف المعـاني ويحـول القلوب، وقد ورد ما يدل على ذلك في قوله تعالى :﴿ وَمَا أَرْسَـلْنَا مِنْ قَبْلِـكَ مِنْ رَسُـولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّـيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِـهِ فَيَنْسَـخُ اللَّهُ مَـا يُلْقِي الشَّـيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الحج:52)

والشيطان يتخذ في تزييناتـه أسـلوب المرحليـة، فهـو يبدأ مع كل شخص بحسب قابليته، ثم ينتقـل معـه خطـوة

[1]() رواه البخاري في الأدب المفرد 418 وأبو داود 4790 والترمذي 1964.

خطوة إلى أن ينتهي معه إلى آخر الطريق، قال تعالى محذرا من هذا الأسلوب الشيطاني الذي لا ينتبه له إلا المراعون لأنفاسهم وخطراتهم وأحاديث قلبوبهم:﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(النور:21)

أما آخر الطريق الذي ينتهي عنده الشيطان مبتسما، وقد نجح في صياغة نسخة منه فيشرحها قوله تعالى :﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِين﴾(الحشر:16)

وهذا الذي يقوله في الدنيا هو عين ما سيذكره في خطبته البليغة لأهل النار الذين يتجمعون حوله يلومونه ويعنفونه، وينسبون كل جرائمهم إليه، وفي نص الخطبة ما يشير إلى أسرار تلك التزيينات التي لم يكن للشيطان فيها من سلطة إلا سلطة الكلمة، ولم يكن من دافع لسماعها إلا القابلية التي كان أهل النار مستعدين لها، وبذلك يحكم الشيطان لنفسه بالبراءة، ويكفر بكل ذلك التعظيم والطاعة التي عبد بها من دون الله في أجيال الأرض الطويلة، قال تعالى :﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(إبراهيم:22)

وما ذكره القرآن الكريم عن نهاية وسوسته للإنسان

بإلقائه في الكفر ذكره عن حاله بعد نهاية كل وسوسة، حيث يولي مدبرا تاركا فريسته يتمرغ في أوحال تزييناته، وهذه الحادثة التي وقعت للمشركين مثال على ذلك، قال تعالى :﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنْ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتْ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال:48)

ولعل هذا النص يشير إلى ما تستشعره النفوس بعد حصولها على اللذة التي باعت في سبيلها كل فضيلة، فإنها بمجرد الظفر بها تشعر بنوع من الكآبة ومن القلق الداخلي الذي لا يعرف سببه.

وما سببه إلا انقطاع تيار التزيين الذي كان متصلا بقلب المستعد له، فيحرم من أبسط ما كان ينتظره، ويعادى من أقرب الناصحين لنفسه الشيطان الرجيم.

ولهذا أمرنا بالإستعاذة الدائمة منه، وسن لنا النبي ﷺ الكثير من المأثورات في ذلك، قال تعالى :﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (فصلت:36)

ولكن التزيينات لا تتوقف عند الشيطان فهناك آلا ف الشياطين الذين يوسوسون كل حين ثم يخنسون، فلا هم يفترون ولا هم ييأسون، قال تعالى :﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمْ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ (فصلت:25)

وقد جاء التسمية القرآنية لهذا الموسوس بلفظ

القرين ليشير إلى الملازمة الدائمة التي تتحول بها الأفكار والطبائع، فالملازمة أصل التزيين، والإلف جذر الاستحسان، وما انشغال الإنسان بصنوف الزينة التي لا يرى غيرها إلا نتيجة لذلك الإلف الذي يحجب عن البصر الرؤية السوية، فلا تفرق بين العسل والسم.

وقد اعتبر القرآن الكريم في هذه الآية قرين السوء رسولا من الله إليه، فالله هو المقيض لذلك القرين، لأن حكمة الله تعامل كل جوهر بحسب استعداده، ولهذا جاء في قوله تعالى :﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَانِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾(الزخرف:36)

وما يشير إلى سر ذلك التقييض، وهو العشى الذي حجب بصيرته عن ذكر الرحمن، وما أنسب هذا الاسم لهذا الموضع، فهذا الضال عشى عن ذكر الرحمن وابتعد عن مقتضياته ليقع تحت سلطان أسماء أخرى من المضل والمنتقم والجبار، فإنه لا فرار لأحد بحال من الأحوال عن أسماء الله الحسنى.

والقرآن الكريم يذكر خطبة القرين وتبريه كما ذكر خطبة الشيطان، وكما ذكر خطب المستكبرين والمستضعفين ليبين حقيقة ذلك التزيين، وأنه لم يكن سوى مساحيق وضعت على الدماء وحلي وحلل كسي بها كل شخت دميم، قال تعالى :﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيد﴾ (ق:27)

ويبين القرآن الكريم أن هذا القرين أو مثله كان من أصحاب المؤمن في الدنيا، ولكن المؤمن الذي لم يعشو عن ذكر الرحمن لم يكن مستعدا لقبول تزييناته، فالرحمن يحفظه من كل ما لا يقتضيه اسمه الجليل، قال

تعالى يخبر عن ذلك المشهد الأخروي في مسامرة جـرت بين أهل الجنة:﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَـرِينٌ يَقُـولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَـدِّقِينَ أَئِذَا مِتْنَـا وَكُنَّا تُرَابًـا وَعِظَامًـا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ (الصافات:53)

ولهذا، فإن المزين الحقيقي هو الله لاقتضـاء ضـرورة تمييز الجواهر ذلك التزيين، ولكن الملوم هو العبد القاصر الأعمـه الـذي لم يـر من تزيينـات اللـه إلا مـا يناسـب استعداده، قال تعـالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُـونَ بِـالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾(النمل:4)

لأن الله تعالى زين كل شـيء، وخلـق كـل شـيء في منتهى الحسن والجمال ليحصل بذلك الحسـن البلاء، قـال تعالى :﴿ إِنَّا جَعَلْنَـا مَـا عَلَى الْأَرْضِ زِينَـةً لَهَـا لِنَبْلُـوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الكهف:7)

والقرآن الكريم يضرب أمثلة كثيرة عن ذلـك الـتزيين منها ما هو في أعـالي الفضـاء:﴿ وَلَقَـدْ جَعَلْنَـا فِي السَّـمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾(الحجر:16)

ومنهـا مـا هـو على الأرض يـدب أو يطـير أو يخـترق الأجـواء أو يغـوص في أعمـاق المحيطـات والبحـار، قـال تعالى :﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَـا وَزِينَـةً وَيَخْلُـقُ مَا لَا تَعْلَمُون﴾ (النحل:8)

وهذه إشارة قرآنية عامة للـتزيين الواقـع في وسـائل النقل، والذي كان ولا يزال تجارة رائجة بعد أن انتقـل من تزيين الخيول إلى تزيين السيارات والطائرات والصواريخ، ولهذا ختمت الآية بقوله تعـالى :﴿ وَيَخْلُـقُ مَـا لَا تَعْلَمُـونَ﴾ (النحل:8)

وتزيين الله تعالى الشامل العام التام هو الذي أذاق المؤمنين حلاوة الإيمان ومرارة الكفر حين وضع زينة الإيمان في القلوب المؤمنة، فرحمة الله تأبى أن يحرم التمتع بالزينة أولياءه ولو في الحيز الدنيوي البسيط، قال تعالى :﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنْ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمْ الرَّاشِدُونَ﴾(الحجرات:7)

فالحلاوة التي يجدها الكافرون والمؤمنون واحدة، والفرق بينهما لا يعدو موضوع التزيين وعاقبته، فعاقبة تزيين المؤمن السرور والفرح الدائم في الدنيا والآخرة، وعاقبة تزيين غيره هو الألم المباشر الذي يحسه بعد انقطاع تيار التزيين الشيطاني، فيظلم قلبه وتعشو عيناه.

هما كمن جلس على مائدة واحدة، وعلى طعام واحد، هو طعام الله، لكن الكفرة أبوا إلا أن يضيفوا إلى طعامهم سما ليتميزوا به عن غيرهم، فإذا بهم يتخبطون تحت تأثيره.

فالله تعالى لم يحرم المؤمنين من ضيافته على هذه الأرض ولم يحرم عليهم الطيبات، بل هي لهم كما لغيرهم في الدنيا، وهي لهم خالصة في الآخرة، قال تعالى :﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(الأعراف:32)

ولكن الشيء الوحيد الذي طلب من المؤمنين، وهو شيء هين بسيط يزيد في فرحتهم وسعادتهم هو أن لا ينشغلوا بالنعيم الفاني عن الباقي، وأن لا ينشغلوا بالخلق

عن الخالق، قال تعالى :﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾(طه:131)

وقد جاء التعبير عن الذين كفروا بهذا الاسم ليشير إلى العمى الذي أوقعه فيهم جحودهم، فأصبحوا لا يميزون بين ما ينفعهم وما يضرهم.

ثم عبر عن موضوع تزيينهم بالحياة الدنيا وهي الحياة الأولية البسيطة التي تشبه حياة الكائنات وحيدة الخلية التي تختار المستنقعات ولا تعرف من وظائف الحياة إلا وظائف محدودة بسيطة بحسب طبيعة تكوينها.

ثم تواصل الآية سيرها وكل حرف فيها ينشر الحسرة في قلوب الذين آثروا الخلق على الله حينما تنجلي الغشاوة عن قلوبهم فيرون الذين كانوا يستهزئون بهم في الدنيا ويرونهم أسفل منهم، قد ارتفعوا إلى أعال لا يبصرونها ولا يحلمون بها، بينما انخفضوا هم إلى وهاد سحيقة ليسمعوا خطبة الشيطان.

التكاثر

التكاثر طبيعة من طبائع الإنسان التي غذيت بها فطرته، وأمدت بها جبلته، وهي دليل كمال، ومعراج وصول، ومسلك تحقيق.

وهي في نفس الوقت مصيدة النفوس الشرهة والأفواه الجائعة والأجساد الظمآنة.

من أجلها بنيت الدور التي لم تسكن، وجمعت الأموال التي لم تنفق، وطرزت الثياب التي لم تلبس، ومن أجلها امتلأت القمامات بأصناف الطعام، وشغل الخلق الكثير بخدمة فرد لا يشبع.

ومن أجلها امتلأت الأرض بؤسا، وتجرع أهلها الشقاء بكل أصنافه، ورمي الطعام في البحر وتراشق الخلق بأصناف الفواكه والحلويات ليموت ملايين الآخرين جوعا.

إذا حلت حمياها في قلوب الملوك واستحلوا لذتها وفرحوا بنشوتها جندوا الجنود وملئوا الأرض حربا والديار خرابا.

وإن حلت في عقول المترفين خربوا الأكواخ وشردوا أهلها ليبنوا بدلها قصورا لا يسكنونها.

وإن حلت في عقول الحمقى تحولوا لصوصا..

وإن حلت في نفوس العامة تحولوا غوغاء..

وإن حلت في جيوب الأغنياء شحوا على أنفسهم وعيالهم لتكثر كنوزهم.

والقرآن الكريم ذم الكثرة ومدحها، ودعا إليها ونهى

عنها، وجعلها من نعم اللـه على عبـاده، وجعلهـا من نقمـه عليهم، ونهى عن الفرح بها وأمر بحمد الله عليها.

وكل ذلك في تناسق عجيب لا تناقض فيـه ولا اختلاف فإنه:﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(فصلت:42)

وقـد ورد هـذا اللفـظ في القـرآن الكـريم بمشـتقاته المختلفة مائة وستة وسبعين مرة، وأكثر مـا ورد فيـه من هذا اللفظ جاء في مواضع ذم.

ومن العجيب أن يرتبـط اسـم سـورتين من السـور القصـار باسـم الكـثرة، وأن تـذم وتتوعـد إحـداهما على الكثرة المذمومـة، وأن تبشـر الثانيـة بـالكثرة المحمـودة، وأن ينهى في الأولى عن التيه بتلك الكثرة، وأن يـؤمر في الثانية بحمدها، هما على طرفي نقيض في كل شيء حتى في البناء الصرفي الذي تكون منه كلا اسميهما.

أما السورة الأولى فسميت بسورة التكاثر وهو ـ كمـا يعرفه البيضـاوي ـ التبـاهي بـالكثرة، والتبـاهي بـالكثرة لا يعني الكثرة، لأن التباهي أمر نسبي في كل ما يرتبـط بـه لخضوعه لاعتبـارات المتبـاهى بـه والمتبـاهى عليـه وزمن التبـاهي وظـروف المتبـاهين واعتبـارات أخـرى كثـيرة لا يمكن حصرها.

بينما سـميت الثانيـة بسـورة الكـوثر وهـو فوعـل من الكثرة وصـف بـه للمبالغـة في الكـثرة، مثـل النوفـل من النفل، والجوهر من الجهر،والعرب تسمي كل شيء كثـير في العدد أو القدر أو الخطر كوثراً[1]

---

(1) فتح القدير:5/715

وانطلاقا من اختلاف الاسم يبدأ اختلاف المضمون، وسنحاول أن نجري مقارنة بين كلا الكثرتين الواردة في السورتين لنفرح بالمحمودة ونحمد الله عليها، ولا نغتر بالمذمومة ونعوذ بالله منها.

في سورة التكاثر يبدأ الإخبار الدال على الذم بقوله تعالى :﴿ أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ (التكاثر:1) والإلهاء هو الاشتغال بما لا يعني، وهو من عمل النفوس الضعيفة التي تقع عاجزة أمام متطلبات رغباتها، فلذلك تقبل إقبالا كليا عليها وفي حرص شديد، وقد تترك أثناء ذلك التلهي وذلك الحرص مصالحها العاجلة والآجلة، وقد لا تلتفت إلى النقائص الكثيرة للأشياء التي تشتغل بعدها وإحصائها والمباهاة بها عن النظر في قيمتها وجدواها.

بينما تبدأ سورة الكوثر بضمير المتكلم المؤكد بـ (إنا)،وهو ضمير يعود على الله تعالى، فالكثرة التي تتحدث عنها هذه السورة كثرة ربانية لا كثرة نفسية، وكل ما هو رباني في منتهى الجمال والحسن والكمال، وليس في الإمكان وجود ما هو أحسن منه، لأن ذلك يقتضي موجدا آخر، وهو مستحيل.

وهي جملة إسمية مؤكدة لتفيد ثبوت معناها ودوامه واستمراره، بخلاف استهلال سورة التكاثر بالجملة الفعلية المرتبطة بالزمن الماضي، فالإلهاء مهما امتد زمنه سيفنى وسيتحول إلى حدث ماض لا تغني فرحته، ولا تذكر نشوته.

وبعد الاستهلال يأتي موضوع التكاثر والكوثر، وفي القرآن الكريم حديث مستفيض عن كليهما:

وأول تصحيح لمفهوم الكثرة نجده في قوله تعالى :﴿

قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(المائدة:100)

فهذه الآية تضع الميزان الصحيح لتقييم الأشياء، فليس هو بالعدد وإنما هو بالنوع، وليس هو بالكم ولكنه بالكيف، فالخبيث ـ وهو في لسان الشرع كل نجس و منكر وقبيح ـ لا يمكن أن يتساوى مع الطيب، ولو كثر الخبيث، بل إن كثرته لا تزيده إلا قبحا ودمامة وخبثا.

والإعجاب الناشئ من كثرة الخبيث إعجاب نفسي ينقلب تعجبا بأول نظر عقلي يزن الأشياء بموازينها الصحيحة، ولهذا جاء الخطاب في الآية لأولي الألباب أصحاب الحقائق لا القشور.

وقد بين القرآن الكريم علة انهزام الصحابة أول غزوة حنين، وهو الإعجاب بالكثرة والفرح بها والتلهي عن أسباب النصر الحقيقية، قال تعالى :﴿لَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾(التوبة:25)

ولهذا لم ينتصر في هذه المعركة كما تروي كتب السيرة إلا القلة مع رسول الله ﷺ بثباتهم، ليجني غيرهم ثمرات انتصارهم، ويعلموا أن الله تعالى هو الناصر لعباده لا القلة أو الكثرة.

وتلك الثلة الإيمانية التي لا تنظر أثناء المعارك الكثيرة، معارك الحياة والحضارة والحرب، هي التي انتصر معها طالوت عندما تحول الجمع الكثير من بني إسرائيل الذين طلبوا القتال إلى رغوة صابون نفختها

الرياح، قال تعالى :﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ (البقرة:25)

فقد سار معه في أول المعركة ـ كما يذكر المفسرون ـ ثمانون ألفا، ولم يثبت إلا الذين قالوا تلك الكلمة وهم على عدة أصحاب بدر ثلاثمائة وبضعة عشر، وكان من حكمة طالوت ودلائل بسطة علمه أنه لم يعنف أحدا ليخرج معه، بل جعل خروج الناس معه تطوعا وفداء، ثم نقى من جيشه كل جراثيم الفساد التي قد تنخر قوته ووحدته.

والقرآن الكريم يكاد يختصر تلك الثلة أيضا في داود عليه السلام عندما قتل جالوت، وارتبط بقتله النصر، لأن النصر في المعارك قد يكون بفتح باب، وقد يكون بصيحة، وقد يكون بخفقة ريح، وقد يكون بقطع رأس كرأس جالوت.

وفي معارك الحياة والحضارة قد تختصر الأمة من الأمم والقرية من القرى في مخترع أو مكتشف أو فيلسوف أو رباني لتنفخ في الغوغاء الرياح.

وقد جعل الله تعالى من آياته أن ينتصر المؤمنون في أول لقاء لهم مع المشركين في غزوة بدر مع كونهم الثلة القليلة الحافية الجائعة العارية المستضعفة، قال تعالى :﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (آل عمران: 13)

وهـذه الآيـة، ككـل آيـة في القـرآن الكـريم، ليس الخطاب بها خاصا باليهود وإلا فرغت من محتواهـا ودخلت كتب التاريخ، بل الخطاب بها عام لجميع المؤمـنين، و في كل العصور، ليدركوا أن الله تعالى هو الفاعـل لا القلـة أو الكثرة.

وهـذا الإدراك الـذي يـنزع من قلـوبهم الزهـو بكـل أشـكاله هـو الـذي يثبتهم في كـل المعـارك، لأن الأقـدام المزهوة المختالة لا تستقر على أراضي المعارك الحربيـة والعلمية والحضارية ...

ولهذا اعتـبر ﷺ في جلسـة لـه مـع الصـحابة لدراسـة أعمـق مشـاكل الحضـارة، وتبصـر أخطـر الأزمـات الـتي ستمر بها الأمة، وإعطاء أنجع الحلول، الكـثرة غثـاء كغثـاء السيل، قد لا تضر ولكنها لا تنفع، قـال ﷺ :(يوشـك الأمم أن تـداعى عليكم كمـا تـداعى الأكلـة إلى قصـعتها،فقـال قائـل:ومن قلـة نحن يومئـذ، قـال: بـل أنتم يومئـذ كثـير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابـة منكم، وليقـذفن اللـه في قلـوبكم الـوهن، فقـال قائل:يا رسول الله وما الوهن؟ قال: (حب الدنيا وكراهيـة الموت)[1]

وكان ﷺ يربي الصحابة على معرفة الرجال بأقدارهم لا بتكاثرهم وتعاظمهم، وأن القلة النافعة خـير من الكـثرة الضارة: مر رجل على رسول الله ﷺ، فقـال لرجـل عنـده جالس:ما رأيك في هذا؟، فقال:رجل من أشراف النـاس، هـــذا واللـــه حـــري إن خطب أن ينكح، وإن شـــفع أن يشفع،فسكت رسول الله ﷺ ثم مر رجـل آخـر، فقـال لـه

[1] رواه أبو داود (4297)

رسول الله ﷺ:ما رأيك في هذا؟ فقال:يا رسول اللـه هـذا رجـل من فقـراء المسـلمين، هـذا حـري إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يسـمع لقولـه، فقال رسول الله ﷺ :(هذا خير من ملء الأرض مثل هذا) [1]

ولهذا فإن القرآن الكريم يعتبر الثلة الصالحة السابقة بـالخيرات في كـل الأمم ثلـة قليلـة، ومـا عـداها دهمـاء وغوغـاء وعامـة وظلمـة وفسـقة ومفسـدون في الأرض، وليس ذلـك من الأرسـتقراطية، وإنمـا هـو إخبـار بـالواقع الديني والخلقي للبشر، لأن البشر كالمعادن والمعادن بعد حرقها تكون ندرتها بقدر جودتها، وقـد يمن الجبـل العظيم بحفنة من الذهب وبأطنان من الحجـارة والشـوائب، قـال تعـالى مخـبرا عن مواقـف الخلـق يـوم القيامـة عنـدما يصنفون بحسب نوعياتهم وجواهرهم وحقـائقهم، فهم بين السابقين وهم الثلـة النـادرة الـتي أخـبر تعـالى عن قلتهـا بقوله:﴿ ثُلَّةٌ مِنْ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنْ الْآخِرِينَ ﴾(الواقعة:14)

بينما قال عن أهل اليمين وهم عامـة المؤمـنين:﴿ ثُلَّةٌ مِنْ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنْ الْآخِرِينَ﴾ (الواقعة:13، 14) وسكت عن ذكر باقي الخلق من أهل الشـمال لأن عـددهم يفـوق الحصـر ولا قيمـة لعـدهم، وجميعهم لا يسـاوي واحـدا من المؤمنين.

وأخـبر تعـالى عن قلـة عبـاده الشـاكرين، وهم الـذين عرجوا بأرواحهم إلى أرقى معارج الكمـال،قـال تعـالى :﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(سبأ:13)

بينما جاءت النصوص الكثيرة تصـف غـيرهم بـالكثرة،

1() رواه البخاري 7/9 (5091) وفي 8/118 (6447)

قال تعالى :﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾(المائدة:32)، وقال تعالى :﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾(يونس:36)، وقال تعالى :﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾(البقرة:243)، وقال تعالى :﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف:103)، وقال تعالى :﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُون﴾(يوسف:106)

بل إن الآيات لا تستثني رجال الدين والقائمين عليه من هذه السنة الاجتماعية، سنة فساد الأكثرية، وذلك مما ينزع توهم أرستقراطية المؤمنين بسبب قلة عددهم، لأن المؤمنين ليسوا فقط رجال الدين والقائمين عليه، قال تعالى عن رجال الدين من اليهود والنصارى ـ ولا مانع من استفادة المسلمين من هذا النص وتعبيره عن بعض الواقع المزري الذي قد يمثله بعض القائمين على الدين ـ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾(التوبة: 34)، وقال تعالى :﴿ وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (المائدة:62)

فالكثرة إذن على ضوء هذه النصوص وغيرها كثرة لا قيمة لها، وإنما تحمد إن كانت كثرة صالحة لأنها حينذاك لا تزيدها الكثرة إلا جمالا، ولعله لأجل ذلك قال ﷺ :(تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم)[1] ، وقد دل هذا الحديث على الكثرة النوعية لا الكثرة الكمية، لأن

[1] رواه أحمد 3/158 (12640) وفي 3/245 (13604).

المباهاة لا تكون بالمتردية والنطيحة وما أكل السبع، ولهذا جعل من صفات المرأة الولود كونها ودودا، وتوفر هذه الصفة فيها توفر للتربية الصالحة والتنشئة الطيبة، وكثرة كل شخص بهذا الاعتبار بحسب طاقته التربوية لا بحسب طاقته المادية فقط.

ولأجل هذا أيضا من الله على المؤمنين بأن كثرهم، قال تعالى :﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾(الأعراف:86)، وقال تعالى :﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمْ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾(النحل:6)

هذا هو بعض أحاديث القرآن الكريم عن الكثرة والقلة البشرية، وما يحمد منها وما يذم، وهو ما يشير إليه قوله تعالى :﴿ أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ﴾(التكاثر:1)، وما يشير إليه أكثر سبب نزولها، قال ابن عباس :(نزلت في حيين من قريش: بني عبد مناف، وبني سهم تعادوا وتكاثروا بالسادة والأشراف، فقال كل حي منهم نحن أكثر سيدا، وأعز عزيزا، وأعظم نفرا، وأكثر عائذا، فكثر بنو عبد مناف سهما، ثم تكاثروا بالأموات، فكثرتهم سهم)[1]

ووردت آراء أخرى في أسماء القبائل المتفاخرة، والنص يحتمل جميعها، ويحتمل معها شعوبا كثيرة لا تزال تتفاخر بلاعبيها ومطربيها ومصفقيها.

ولكن الكلمة تحتمل مع ذلك معاني أخرى من الكثرة المذمومة، وهي التي فسرها ﷺ بقوله بعد أن قرا الآية بهذا الخطاب الموجه لأعماق النفس :(يقول ابن آدم: مالي مالي! وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت

1() تفسير القرطبي (20/ 168)

فـأفنيت، أو لبسـت فـأبليت، أو تصـدقت فأمضـيت، ومـا سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس)[1]

وفسرها بقوله الآخر الذي يعبر عن الحـرص البشـري الموضوع في غير محله، قـال ﷺ :(لـو أن لابن آدم واديـا من ذهب، لأحب أن يكـون لـه واديـان، ولن يملأ فـاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب)[2]

ولهذا اعتبر القرآن الكريم التكاثر من مكونات الحيـاة الدنيا التي يمتزج فيهـا اللهـو واللعب والزينـة كمـا تمـتزج النباتات المختلفة في حقل واحد ينزل عليه المطر فيحيله أخضـر يانعـا تبتهج لـه النفس ويسـر لـه القلب، ولكن سرعان ما تطل عليه الشمس بحرارتهـا الحارقـة فتحيلـه أصفر شـاحبا ثم هشـيما حصـيدا، وحينـذاك تكـون القيمـة لنوع الحب والحصاد، فمنه ما ينتفع بـه الإنسـان ومنـه مـا ينتفع به الحيوان، ومنه ما تنتفع به النار.

ولذلك انتقل المشهد القرآني مباشرة من الحقل إلى الآخرة ليبين أنواع الجزاء التي لا تختلـف كثـيرا عن جـزاء الحصاد، قال تعالى :﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْـوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًـا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَـدِيدٌ وَمَغْفِـرَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرِضْـوَانٌ وَمَـا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(الحديد:20)

ولعـل سـر اعتبـار الكـثرة من مكونـات الحيـاة الـدنيا بمفهومها السـاذج البسـيط هـو ذلـك الغـرور الـذي ينتـاب

1() رواه أحمد 4/24 (16414) وفي 4/24 (16415)

2() رواه أحمد 1/370 (3501) والبخـاري 8/115 (6436) وفي (6437) ومسلم 3/100 (2382)

المستكثر حين يرى نفسه محصنا بأموال لا تفنيها القرون، وبعدد لا تقتحمه الجيوش، وحين يرى أنه قد ضمن دنياه ومستقبله، وقد يستبد به الغرور فيتصور أن الحظ الذي حالفه في الدنيا سيحالفه في الآخرة، أو أن الله الذي أنعم عليه في الدنيا لن يملك إلا أن ينعم عليه في الآخرة، أو أن الأموال التي جمعها بكل الطرق ستكون رشوة صالحة لخزنة النار فلا يعذبونه، قال تعالى عن أمثال هؤلاء السذج:﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾(سبأ:35)

ولهذا تفتح لأمثال هؤلاء المغرورين خزائن الأرض بعد أن وصدت في وجوههم أبواب السماء، وما إن تشرق في أفواههم ابتسامة النصر على السماء ونشوة الفرح بالأشياء حتى يؤخذوا بغتة وهم في حالة التباس يمسحون عن أعينهم وهم لا يصدقون ما يرون، قال تعالى :﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (الأنعام: 44)

ولا تنافي بين الكثرة التي يذمها الله تعالى لاشتغال القلوب بها عنه وتلهيها بها عن حقيقتها وبين الكثرة التي هي نعمة من نعمه على خلقه إذا أقاموا الدين وعرفوا كيف يتعاملون مع كتبهم، حينذاك لا تفتح لهم أبواب الأرض فقط، بل تفتح لهم معها أبواب السماء، فيأكلون من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ولكن الخلق مع هذا الكوثر الرباني يأبون إلا أن تغلق في وجوههم أبواب السماء، وكأن اللذة لا تتحقق وأبواب السماء مفتوحة، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ

مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾(المائدة:66)

وهذا الكوثر الرباني هو الذي أعطاه الله تعـالى لنبيـه وكل من يسير على قدمه في مقابل عدم تلهيهم بالتكـاثر البشري الفاني الزائل.

وقد ذكر المفسـرون عن هـذا الكـوثر الربـاني أقـوالا كثيرة منها أنه نهر في الجنة، وقيل هو حوض النبي ﷺ في الموقف، وقيل هـو النبـوة، وقيـل هـو القـرآن، وقيـل هـو تفسير القرآن وتخفيف الشرائع، وقيل هو كثرة الأصـحاب والأمة، وقيل هو الإيثـار، وقيـل هـو الإسـلام، وقيـل رفعـة الذكر، وقيل نور القلب، وقيل الشفاعة، وقيل المعجزات، وقيل إجابة الدعوة، وقيل لا إله إلا اللـه، وقيـل الفقـه في الدين، وقيل الصلوات الخمس.

والمفسرون بمحـاولاتهم حصـر الكـوثر في أحـد هـذه الأشياء كمن يحاول عـد النعم الـتي تفضـل اللـه بهـا على نبيه ﷺ وهي نعم لا تعد ولا تحصى وليس في طاقة البشر عـد النعم المرتبطـة بأدنـاهم، فكيـف بعـد النعم المتعلقـة بخير خلق الله وأشرفهم وأقربهم إلى الله؟

واللـه تعـالى يـراعي الفطـرة البشـرية في كـل نعيم يتفضل به عليهم، ومـادام البشـر لا يشـبعون ولا يرتـوون، بل يطلبون دائما المزيد، فالله تعالى وعد عباده الصالحين برحمته ذلك المزيد غير المحدود في الدنيا والآخـرة، قـال تعالى عن كثرة الدنيا: ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَـانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (الفتح:19)، وقال عن كثرة الآخـرة: ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (الزخرف:73)

وكما أن الكـثرة في الجنـة، كـذلك الكـثرة في النـار،

كثرة العدد، وكثرة الصياح، لأنها تتبع الطبيعة البشرية حيثما حلت، يقول تعالى لأهل النار يوم القيامة:﴿ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾(الفرقان:14)

وفي النار يكتشفون أن كل النعيم الذي تكاثروا به واشتغلوا وتلهوا لم يكن إلا متاعا قليلا كالمتاع الضروري الذي يحمله المسافر معه ويجتهد في تقليله ما أطاق، قال تعالى :﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(النحل:117)، ويرون أن زمن ذلك المتاع كان أقل منه: ﴿قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(المؤمنون:114)

ولا يدركون ذلك إلا بعد معرفة السعة الإلهية التي لا تحدها الأعداد، ولا تحصيها الأرقام، وما غفلوا عن ذلك إلا لأنهم لم يكونوا يذكرون الله إلا قليلا، ذكرا لا ينبع من قلوبهم ولا تتأثر به حياتهم، قال تعالى عن المنافقين الغافلين:﴿ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء:142)

بينما كان المؤمنون كما تنص عليهم الأوصاف القرآنية الكثيرة ذكورهم وإناثهم من ﴿ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب:35)، وكان ذكر لربهم يشغلهم عن النوم : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾(الذاريات:17)، فلا ينامون من الليل إلا قليلا: ﴿قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(المزمل:2)

وهم المستثنون من كل عذاب وفي كل محل: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ (الشعراء:227) لأن الفوز الأبدي لا يكون إلا ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾

(الأحزاب:21)

وهـذا الـذكر هـو الـذي يصـحبهم في سـائر شـؤون حياتهم، وبسـببه كـانوا يكـثرون من الخـير لأن سـعة اللـه تعوض عليهم وخـزائن اللـه لا تنفـذ، قـال تعـالى :﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَـهُ أَضْـعَافًا كَثِـيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(البقرة:245)

ولكن كل هذه المعارف والسلوك النابع منها لا يكـون إلا بالإكثار من ذكر الله حتى ينحاز المؤمن إلى حزب الله، ولهذا جاء الأمر الربـاني مخصوصـا بالإكثـار من ذكـر اللـه دون سائر الأعمال، قال تعالى :﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾(الأحزاب:41)

وأول ما يلقيه ذكر الله في القلب هـو الحكمـة الـتي يعـرف بهـا صـاحبها حقـائق الأشـياء ويمـيز الخـبيث من الطيب، ويعرف اسـم اللـه الواسـع، قـال تعـالى :﴿ يُـؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْـرًا كَثِـيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾(البقرة:269)

والحكمة الربانية التي يعلمها الـذكر في هـذا المجـال هو أنه لا تنال كثرة الخير إلا بكثرة العمـل، ولا تنـال كـثرة الأذى والشر إلا بالاشتغال بالتكاثر، فالتكـاثر والكـوثر همـا المحـددان لمصـير الإنسـان وحقيقتـه ونـوع الجـزاء الـذي يلحقه، لأن كـل إنسـان لا يكـثر إلا مـا يتناسـب مـع طبعـه وجبلتـه ووظيفتـه، واللـه برحمتـه لا يعطي كـل شـيء إلا خلقــه، ولا يــزن لكــل أحــد إلا بســعته:﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(يونس:44)

ولذلك فإن أصح الأقوال في تفسـير اللمم المسـتثنى

من كبائر الإثم والفواحش الوارد في قوله تعالى في صفات عباده المحسنين:﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى﴾(النجم:32)

وما يعمله الإنسان المرة بعد المرة ولا يتعمق فيه ولا يقيم عليه ; يقال: ألممت به إذا زرته وانصرفت عنه، ويقال: ما فعلته إلا لمما وإلماما; أي الحين بعد الحين، ومنه إلمام الخيال، قال الأعشى :

ألم خيال من قتيلة بعدما وهى حبلها من حبلنا فتصرما

لأن كل إنسان بطبيعته الطينية المستعدة للخطأ قد يلم بالذنب بعد الذنب، والله بسعة مغفرته يتجاوز عنه، ولكنه إن انحاز إلى الذنب واشتغل به وأكثر منه وأعرض عن الله بسببه، حاق به ما حاق بالمكثرين والمتكاثرين من الطبع على القلوب وإغلاق أبواب السماء وفتح أبواب الأرض.

المال

الفرح بالمال هو من أكثر مجالات الفرح شيوعا، وهو في نفس الوقت السرطان الذي إذا سرى حبه للقلب انتقل لجميع الجوارح فعراها الفساد، وإذا انتقل عشقه للأمة ارتفعت عنها جميع الفضائل، ودب إليها الهلاك الذي قد لا يرفع جثمانها عن الأرض ولكن يرفع حقيقتها، وقد قال ﷺ :(اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم)[1]

وهذا الربط بين الشح الذي يمثل المبالغة في حب المال وبين الظلم بأوسع معانيه دليل على العلاقة الوطيدة بينهما، الظلم الذي يأتي به المال والذي شكا منه الشعراء بكل عبارات السخرية، كما قال بعضهم ساخرا:

المال يستر كل عيب والمال يرفع كل وغد
فعليك بالأموال فاقصد اضرب بكتب العلم

وقال يحي بن أكثم:

إذا قل مال المرء قل وضاقت عليه أرضه
وأصبح لا يدري وإن كان أقدامه خير له أم
ولم يمض في وجه من من الناس إلا ضاق

وحديثا قال معروف الرصافي:

وقد يفتري المال وليس لهم مما

1() رواه أحمد 3/323 (14515) وعبد بن حميد 1143 والبخاري، في (الأدب المفرد) 483 ومسلم 8/18 (6668)

وللفقر بين الناس وجه حسنات المرء وهي

لقد أحجم المثري وأحجم ذو فقر فقيل

وإن يتواضع معدم فهو وإن يتواضع ذو الغنى

وذو العدم ثرثار بكثر وذو الوجد منطيق به

والفرح بالمال هو الفرح الوحيد الذي جاء ذمه صريحا في القرآن الكريم مشفوعا باللازمة الخطيرة ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ ﴾، قال تعالى حكاية عن قارون وعن الصـالحين من بني إسرائيل الذين لم يغرهم مالـه: ﴿إِنَّ قَـارُونَ كَـانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَــهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْـرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (القصص:76)

والفرح بالمال هو الحائل بين العقول الغافلـة وقبـول الحق وطاعة أنبيائها مع توفر جميع دواعي صـدقهم، قـال تعالى :﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَـوْنِي وَاتَّبَعُـوا مَنْ لَمْ يَـزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (نوح:21)

وأخبر تعالى أن ذلـك هـو شـأن جميـع الأقـوام الـذين كـذبوا رسـلهم، ولهـذا يقـف أول من يقـف في وجـوههم المـترفون عبيـد الأمـوال، قـال تعـالى عن هـذه السـنة الاجتماعيــة:﴿ وَمَــا أَرْسَــلْنَا فِي قَرْيَــةٍ مِنْ نَــذِيرٍ إِلَّا قَــالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْـوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَــــا نَحْنُ بِمُعَـــــذَّبِينَ﴾(ســـبأ:34،35) قـــــال قتادة:مترفوها: أي أغنياؤها ورؤساؤها وجبابرتها.

ولهــذا تعفــف جميــع الأنبيــاء عن أخــذ الأمــوال من أقـوامهم وصـاحوا فيهم كمـا صـاح هـود عليـه السـلام :﴿ يَــاقَوْمِ لَا أَسْــأَلُكُمْ عَلَيْــهِ أَجْــرًا إِنْ أَجْــرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي

فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (هود:51)، وكما أمر النبي ﷺ أن يقول لقومه:﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام:90)، وأخبر أن الرسل لو طلبوا أموالا من قومهم لكان ذلك مبررا كافيا لهم لبعدهم عن الحق لثقل إنفاق الأموال عليهم، قال تعالى :﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ (الطور:40)

والفرح بالمال هو الذي يحول بين الأسماع واستماع النصح،قال تعالى :﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾(الكهف:34)

والفرح بالمال والركون إليه هو أحد الأسباب الكبرى في تحريف الأديان، لأن رجال الدين الذين يفرحون بالمال ينسون الله والقيم والكتب أمام بريقه، قال تعالى :﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنْ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة:34)

وهذا الربط العجيب بين الأحبار وهم العلماء، وبين الرهبان وهم العباد، وبين الذين يكنزون الأموال، يلخص الحقائق التاريخية الكثيرة عن الأديان التي أصبحت مراكز جباية سواء ما كان منها دور علم أو دور عبادة.

وفي التعبير بالكنز دون التجارة دليل على أن الموارد التي لا تنضب لتلك الدور جعلتهم يكتفون بالكنز دون الاستثمار، لأنه لا يستثمر إلا من يخاف على رأس المال، ورأس مال أولئك هو ألواحهم وصلبانهم، وفي الاقتصار على ذكر الذهب والفضة دون غيرها من صنوف الأموال دليل على الثراء الفاحش لتلك الدور، وهذه الحقائق

القرآنية كلها تطفح بتفاصيلها كتب التاريخ.

والقرآن الكريم يعتبر كل ذلك سحتا، ولكنه يبين أن ذلك هو دأب الأكثرية، لأن في كل دين زهاده وأهل الإخلاص فيه، وهو من أساليب القرآن في حديثه عن المذاهب والملل فلا يعمم حين لا يقتضي المقام التعميم: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمْ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (المائدة:62)

والمال هو أحد الفتن الكبرى التي يختبر الله بها عباده، وأصل الفتنة إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، ولذلك جعل الله الأموال محكا لاختبار أصل معدن كل إنسان، هل هو ذهب أم شوائب؟ قال تعالى :﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال:28)

وضرورة الاختبار تقتضي التزيين والتحبيب إلى القلوب، تزيين أمور كثيرة يختلط فيها الحق والباطل، ليظهر من يختار الحق ومن يختار الباطل ليتميز بذلك معدن كل إنسان، قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾(آل عمران:14)، وقد اختلف العلماء في المزين الذي لم يصرح بذكره في الآية كما لم يصرح بذكر مثله في أكثر المواضع التي ورد فيها هذا اللفظ:

فذهب بعضهم في ظاهر قوله إلى أن المزين هو الله تعالى كما قال تعالى :﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(الكهف:7)، فالله تعالى أخبر

في هذه الآية أنه هو الـذي جعـل كـل مـا في الأرض زينـة ليقع الاختبار.

وذهب آخرون إلى أن المزين هو الشيطان مسـتدلين بذم القـرآن للـدنيا، ويشـير إليـه قولـه تعـالى في خطابـه للشـيطان عنـدما رفض السـجود لآدم:﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَولَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾(الإسراء:64)

ويمكن الجمع بين القولين جميعا وإضافة أقوال أخرى كثيرة فالفعل المبني للمجهول يحتمل كل ذلك.

فتزيين الله تعالى إنمـا هـو بالإيجـاد والتهيئـة للانتفـاع وإنشـاء الجبلـة على الميـل إلى هـذه الأشـياء، وتـزيين الشيطان إنما هـو بالوسوسـة والخديعـة وتحـسين أخـذها من غير وجوهها، وتزيين وسائل الإعلام بأنواع الإشـهارات التي تقلب الطبيعة وتغير الجبلـة، وتـزيين رفـاق السـوء.. والدراسـات العلميـة.. والبحـوث الميدانيـة.. ومصـممي الأزيـاء.. والشـركات الكـبرى..كلهـا ممـا تحتملـه الآيـة ولا تضيق به.

ولأجـل هـذا الـتزيين وردت الأحـاديث الكثـيرة تـبين مخاطر هذا الاختبار الذي غرست زينته في القلوب غرسـا ثم سـقيت بوسـاوس الشـيطان ووسـائل الإعلام وقرنـاء السوء، قـال ﷺ: (حجبت النـار بالشـهوات وحجبت الجنـة بالمكاره)[1]، وقال : (الدنيا سجن المؤمن وجنـة الكـافر)[2]

1() رواه أحمد 2/260 (7521) والبخاري 8/127 (6487).

2() رواه أحمد 2/197 (6855) وعبد بن حميد 346.

ولكن النص القرآني أخبر بعد ذلك بما هو خير من تلك الزينة المؤقتة ، فقال تعالى :﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران:15)

ونلا حظ في هذا النص القرآني الجليل أنه قدم الزينة الحسية من الجنات والأزواج والأنهار على النعيم المعنوي الأكبر رضوان الله، وذلك لميل الطبيعة الإنسانية الشديد لتلك الشهوات.

والقرآن في خطابه للنفس لا يقمع صفاتها، وإنما يوجهها بحسب ما تقتضيه طبيعتها، وطبيعتها كما تنص النصوص الشرعية هو الحب الشديد للمال، قال تعالى: ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر: 20)، وقال تعالى :﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (العاديات: 8)

ويقول ﷺ: (لو أن لابن آدم واديين من مال لابتغى واديا ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب)[1]

ولكنه مع إقراره هذا لا يذهب مذاهب الواقعيين الذين لم يفهموا الطبيعة البشرية، ولم يفهموا سنة التدافع فيها لتسير الحياة سيرا مستقيما كما يسير الكون جميعا، فلذلك نزعوا القيم من المال جلبا وإنفاقا، واستغرقوا في حب المال، وفسروا به حركة الكون والتاريخ.

والنبي ﷺ يصف هؤلاء بعدم العقل وإن حازوا

1() رواه أحمد 5/131 (21521) والترمذي 3793 و3898.

النياشين وشيدت لهم التماثيـل،قـال ﷺ: (الـدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له)[1]

والقرآن الكـريم يخـاطب النـبي ﷺ بـأن لا تغـره تلـك الأمـوال الكثـيرة والأرصـدة الضـخمة المودعـة في كـل البنوك، بل ينهاه عن مجرد الإعجاب بها، قال تعالى :﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَـذِّبَهُمْ بِهَـا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾(التوبة:55)

والقرآن الكريم ينبه هنا إلى حقيقة ضـخمة تغيب عن الذين تسكر أرواحهم بحب المال، وهي أن ذلك المال نوع من العذاب الذي يسلط عليهم في الدنيا قبل الآخـرة كمـا قـال تعـالى :﴿ أَيَحْسَـبُونَ أَنَّمَـا نُمِـدُّهُمْ بِـهِ مِنْ مَـالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ﴾ (المؤمنون:56)

والمتأمل لأنواع العـذاب الـتي يعانيهـا أربـاب الأمـوال حين جمعها، أو عند المحافظة عليها، أو عندما ينبأ أحــدهم بخسارة ما، أو عندما يسمع بنجاح منافسه يـرى من ذلـك الشيء الكثير.

وقد صور القرآن الكريم صورة كاريكاتورية لمثل هـذا الإنسان اللاهث وراء الأموال يجمعها ويعدها كــل حين في سورة خاصة، قال تعـالى :﴿ وَيْـلٌ لِكُـلِّ هُمَـزَةٍ لُمَـزَةٍ الَّذِي جَمَعَ مَـالًا وَعَـدَّدَهُ يَحْسَـبُ أَنَّ مَالَـهُ أَخْلَـدَه كَلَّا لَيُنْبَـذَنَّ فِي الْحُطَمَـةِ وَمَـا أَدْرَاكَ مَـا الْحُطَمَـةُ نَـارُ اللَّهِ الْمُوقَـدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُوصَدَةٌ فِي عَمَـدٍ مُمَـدَّدَةٍ ﴾ (سورة الهمزة)

فهي تصور إنسانا دأبه في حياته أن يسـخر من غـيره

---

[1] رواه أحمد 6/71.

ويستهزئ بهم، ويستعين على ذلك بعد أمواله، لأنها الوحيدة التي تبث في نفسه الثقة، وترفع من معنوياته، وتجعل غيره صغارا أمام عينيه، يحل له أن يهمزهم ويلمزهم كما يشاء.

ولكن السورة التي ترسم هذه الصورة تختم ببيان العذاب الذي يلقاه هذا الصنف من الناس، ولكل طبع خارج عن الفطرة عذابه الخاص به، وإن كان ذلك العذاب في الآخرة إلا أنه يتناسب تماما مع عذابه في الدنيا كما يتناسب مع نوع جرمه، فالمتهالك في جمع المال وحبه يحطم طبعه ويهشم خصائصه وينكس صفاته، فبدل أن يجعل المال خادما جعله مخدوما، ووضع نفسه عبدا مسخرا له كما قال ﷺ: (تعس عبد الدينار)

وهو لذلك يتلظى طول حياته بنار الحسرات والخوف والأمل، لا يهدأ أبدا ولا يطمئن ولا يهنأ بمأكل ولا مشرب، والنار تلتهم قلبه وطبعه، وهو في قيوده الممددة داخل سجن المال، وقد اختصرت الحياة في عينيه في بريق الذهب ولمعان الفضة.

ولأجل هذا الانتكاس الذي يولده الفرح بالمال في النفس البشرية شبه ﷺ مايفعله حب المال بدين المؤمن بالذئاب الجائعة المرسلة على زريبة غنم، قال ﷺ:(ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم أفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه)[1]

ولهذا فإن أول ما يخفف غلواء سكرة الفرح بالمال، والتي هي السبب في كل الانتكاسات الفردية والأممية هو

1() رواه أحمد 3/456 (15876) وفي 3/460 (15887) والدارمي 2730.

اعتقـاد المنفعـة المحـدودة لـه، لأن أسـاس الخطـر هـو المبالغـة في تضـخيم دور المـال إلى درجـة وزن النـاس والمجتمعات والتاريخ من خلاله، فالمجتمعات اليوم تصنف بحسب دخل أفرادها لا بحسب القيم المنتشرة بينها، وقـد صور تعالى ذلـك الهمـزة اللمـزة أنـه ﴿ يَحْسَـبُ أَنَّ مَالَـهُ أَخْلَدَه﴾(الهمزة:3)

وهـذه المحدوديـة عـبر عنهـا القـرآن الكـريم بهـذه الحقيقة العظمى :﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾(الشـعراء: 88)، وبقولـه تعـالى إخبـار اعن الإنسـان الغافـل عن ربـه بسبب ماله: ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُـهُ إِذَا تَـرَدَّى﴾(الليـل:11) وبإخبار الله تعالى عن الإنسان الغافل يـوم يكتشـف تلـك الحقيقة فيصيح بندم عظيم لا تقله الجبال:﴿ مَـا أَغْنَى عَنِّي مَالِي هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِي﴾ (الحاقة:29)

وضرب لها المثل بعم النبيﷺ الذي دأب على عداوته مع كونه ابن أخيه، وتشير السورة إلى سبب من الأسـباب الكبرى لتلك العداوة، قال تعالى :﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْـهُ مَالُـهُ وَمَـا كَسَـبَ سَيَصْـلَى نَـارًا ذَاتَ لَهَب﴾ (المسد:3)

فتلك الأموال التي شغلته عن الحق لم تغن عنه شيئا ولن تغني عنه شيئا.

وعبر عنها ﷺ بقوله : (يقول العبد مالي ومالي وإنمـا له من ماله ثلاث: ما أكل فـأفنى أو لبس فـأبلى أو أعطى فأقنى، ما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس)[1]

ثم بينت النصوص أن المـال ليس هـو المقيـاس على

1() رواه أحمد 368/2 وفي 412/2 ومسلم 211/8.

تطـور المجتمعـات وتحضـرها، بـل المقيـاس هـو القيم، ولذلك لم يفرح المؤمنون بمال قارون، ولم تغـرهم زينتـه كما قال تعـالى يصـور مـوقفهم : ﴿ وَابْتَـغِ فِيمَـا آتَـاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْـــكَ وَلَا تَبْـــغِ الْفَسَـــادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾(القصص:77)

وذلك هو ما أدب به النـبي ﷺ أمتـه حيث حـرم عليهـا استعمال الذهب والفضة والتحلي بها، لأنه يعلم أنه ستفتح لهم الأرض، ولن يسـتطيع المثقـل بالأسـاور والخلاخـل أن يخوض القفار ويقتحم البحار ليبلغ دين الله.

كان حذيفة بالمـدائن فاستسـقى فأتـاه دهقـان بمـاء في إناء من فضة فرمـاه بـه، وقـال: إني لم أرمـه إلا أني نهيتـه فلم ينتـه، قـال رسـول اللـه ﷺ :(الـذهب والفضـة والحرير والديباج هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة)[1]

وأخبر أن الذلة تحيق بالأمة عنـدما يصـبح همهـا جمـع المال، قال ﷺ :(إذا تبايعتم بالعينـة وأخـذتم أذنـاب البقـر ورضـيتم بـالزرع وتـركتم الجهـاد سـلط اللـه عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)[2]

ولكن كل هذا الذم للمـال والفـرح بـه مرتبـط بتصـور صاحب المال للمال، وقد ذكر ﷺ للصحابة مثالا عن كيفيـة تولـد الشـر من المـال، وهـو يتضـمن كيفيـة تجنب شـره، حيث جلس ذات يـوم على المنـبر وجلس الصـحابة حولـه فقال: إني مما أخاف عليكم من بعدي مـا يفتح عليكم من

---

[1] رواه البخـاري 7/99 (5426) وفي 7/146 (5632) ومسـلم 6/136 (5445)

[2] رواه أبو داود (3462)

زهرة الدنيا وزينتها فقال رجل: يا رسول الله أويأتي الخير بالشر؟ فسكت النبي ﷺ، فقيل له: ما شأنك تكلم النبي ﷺ، ولا يكلمك، فرأينا أنه ينزل عليه، فمسح عنه الرحضاء فقال: أين السائل ؟،وكأنه حمده فقال: (إنه لا يأتي الخير بالشر، وإن مما ينبت الربيع يقتل أو يلم إلا آكلة الخضراء أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ورتعت، وإن هذا المال خضرة حلوة فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل، وإنه من يأخذه بغير حقه كالذي يأكل ولا يشبع ويكون شهيدا عليه يوم القيامة)[1]

فالفرح بالمال في هذا الحديث كالفرح بكل نعمة تتحول شرا محضا إن عظمت لذاتها، واحترمت لذاتها، وفرح بها لذاتها، أما إن استغلت فيما خلقت له، وغذت طبيعة الإنسان الخيرة، ولم تنتكس بها الطبيعة القويمة، ولم تنزل إلى أسفل سافلين، فإنها من الخير الذي يفرح به، يفرح به بالله ولله، وبهذا يصبح جمع المال وبذل العرق في ذلك عملا من أعمال الخير التي يمارسها المؤمن، بل جهادا في سبيل الله.

وعلامة ذلك هو هذا الخيار الذي يضعه الله تعالى أمام عباده، وهو خيار خطير ينبئ عن الغنى المطلق لله والفقر المطلق للعباد، قال تعالى :﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

---

[1] () رواه البخاري 2/12 (921)، 2/149 (1465) وفي 4/32 (2842) ومسلم 3/101 (2386)

(التوبة:24)

ومما يعين على النجاح في هذا الاختبار معرفة النفس لمقدار ربحها مع الله ومقدار خسارتها مع غيره، الخسارة التي نص عليها القرآن الكريم في قوله تعالى :﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾ (المنافقون:9)، والربح الذي نص عليه في قوله تعالى :﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (التغابن:15)

والمقارنة التي تضع كلا من المال الفاني والبنين الهالكين بجانب الباقيات الصالحات، فإذا بهم يتلاشون في أول كلمة الباقيات، ثم يتلاشون أكثر في الخيرية المطلقة، ثم يفنون ويزولون عند ربك لأنه لا يبقى مع الله شيء:﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (الكهف:46)

وبعد أن تقرر جميع هذه الحقائق يأتي الإخبار بأن هذا المال الذي وضع لنا موضع زينة واختبار ليس ملكا لنا يحق لنا أن نفتخر ونتيه به، بل هو في كل حال مال الله، قال تعالى :﴿ وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾(النور: 33)

وما الإنسان إلا أجير بسيط في هذا المال، أو وكيل عن ربه فيه، أو بالتعبير القرآني مستخلف فيه، قال تعالى :﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾(الحديد:7)

فلذلك لا يحل له أن يفسده أو يضعه في أيدي السفهاء ينفقونه في شهواتهم، قال تعالى :﴿ وَلَا تُؤْتُوا

السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَ اكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾(النساء:5)، بل ينفق في المواضع التي حددها صاحب المال المالك الأصلي، قال تعالى في وصف عباده الصالحين وعلاقتهم بمالهم: ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُوم﴾ (الذاريات:19)

وقد جاء النص على ذلك الإنفاق التطوعي بصيغة الحق الواجب لأن ذلك الصالح الذي ورد وصفه لا يعطيه منة لأنه يملكه، بل يرده إلى أصحابه الذين أمر بتسليمه لهم.

وفي نفس الوقت لا يحل أن يكسب ذلك المال إلا بالطرق التي حددها صاحب المال، قال تعالى :﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء:29)

وقد قرنت هذه الآية الكريمة بين قتل النفس وبين سلب الأموال بغير حق لتبين أن سالب المال كالقاتل، فالثاني يقتل الجسد، والأول يسلب ما يقوم به الجسد، ولهذا اعتبر شهيدا من دافع عن ماله ومات في سبيله.

الأرض

الأرض والتراب والـوطن ظـروف يعيش في وسـطها الإنسان، أم قيم ومبادئ ومصادر يتلقى منها فكره وروحه وعواطفه؟

ولمـاذا يفـرح الإنسـان بـالأرض ويتيـه بهـا ويتعلـق بجـذورها، وقـد يمـد نفـوذه على أراضـي غـيره يغتصـبها ويستعمرها ويمتلك أهلها أو يطردهم؟

ولمـاذا يتغـنى النـاس بقطعـة الأرض الـتي يظنـون أنفسـهم ملاكـا لهـا ومواطـنين بهـا ويبـالغون في تغـنيهم ويجعلها الشعراء مساوية لله في ملكوته، ويختارونها على الخلد وعلى الجنة، ويكادون يختارونها على الله؟

ولمـاذا تجـري تحت بعضـهم الأنهـار، ويخضـر تحت أرجلهم الـزرع، وتـدنو إلى أيـديهم الثمـار، ويلفح آخـرون تحت القيظ، ويحـترقون بـالحر والجليـد، وكـل هـؤلاء، من يعيش منهم في جنة الدنيا، ومن يعيش في سـعيرها، يحن إلى أرضه ويحبها ويتعلق بها ولا يكاد يرضى ببيعها.

وهل الوطن صنم من الأصـنام الـتي تعبـد في الأرض من دون الله، أم أنه آية من آيات الله التي يعبـد من خلال النظر لها الله ويعرف ويحب؟

وهل أصحاب المصالح الـذين يتـاجرون بحب الـوطن، ويتظاهرون بتقبيل ترابه والتمسح بحجارته والانحناء أمـام جباله ووهـاده كهنـة لهـذا الصـنم وسـدنة لـه، أم عـارفون متعبدون يركعون بركوعهم له لله ويتعبدون له؟

وهل عباد هذا الصنم البلهاء الـذين يقصـرون نظـرهم

إلى التراب، ولا يرفعون أعينهم نحو السماء، ولا ينظرون إلى الكواكب الكثيرة التي تزين هذا الكون العريض بلهاء أم مؤمنون، محقون أم مخدوعون؟

إن القاعدة التي نعرفها من خلال القرآن الكريم والنصوص المعصومة المقدسة الخالية من زهو الشعارات وألوانها وبريقها هي أن كل ما يفرح به من دون الله باطل، ومصير صاحبه إلى الحزن، وأن الفرح الوحيد الحق هو الفرح بالله وبما عند الله، فهل الفرح بالوطن معصية، وهو الذي يترعرع بين حناياه الإنسان ويرضع من ترابه، وهو طبيعة لا يكاد ينفك عنها الإنسان، فهل هذه الطبيعة جبلة أم تطبع ؟ وهل هي زينة أم تزيين؟

إن القرآن الكريم ـ وهو يصف اليوم الذي منه بدأ الإنسان ـ يعرفنا أن مزين عبادة الوطن والفرح به والاشتغال به عن الله هو إبليس عندما قال في نص وعيده الذي لم يقصر في تنفيذه: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(الحجر:39)، فقد زين للخلق الأرض فأصبحت في أعينهم أجمل من السماء، وزين لهم التراب فتثاقلوا إليه ونسوا الجنة التي نزلوا منها.

وكانت الأرض هي الظرف الذي تم فيه كل تزيين، وقصر الخلق نظرهم إليها واشتد حرصهم عليها وعبادتهم لها، وكان أكبر تهديد يرسله هؤلاء المواطنون المتثاقلون للأرض العابدون لها لأنبيائهم، هو ما نص عليه القرآن الكريم تفصيلا وإجمالا كسنة اجتماعية يقابل بها الرسل والدعاة في كل مكان وزمان، قال تعالى :﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا

فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ (إبراهيم:13)

وهذا المنطق يبين التصور المغلوط لهؤلاء المتثـاقلين حين تصــوروا أنهم ملاك الأرض، يخرجــون من يشــاءون ويحتفظــون بمن يشــاءون، لأنهم وحــدهم المواطنــون والوطنيون وغيرهم عملاء أو خونة أو يريـدون أن يخرجـوا أهل الأرض من أرضهم.

وهذه هي الورقة التي كـان يلعب بهـا فرعـون عنـدما خـاطب قومـه وعينـاه مغرورقتـان بالـدموع حزنـا على الوطن الذي يريد موسـى أن يسـلبه من المصـريين، قـال تعالى على لسان فرعون:﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِـكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ (الأعراف:110)

وقد كانت هذه الورقة هي التي كان يلعب بها فرعون على عقـول المصـريين كمـا يلعب بهـا كـل الطغـاة على مسار التاريخ، ولذلك كان المنطق الذي عـبر بـه الملأ من قوم فرعون وهم لسانه النـاطق، وهم فـروع من فرعنتـه أو كمــا يصــورهم القــرآن فراعنــة صــغار يختــبئون وراء فرعون الأكبر كما تختبئ الأصنام وراء الصنم الأكـبر، قـال تعالى :﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَـى وَقَوْمَـهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَـكَ قَـالَ سَـنُقَتِّلُ أَبْنَـاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (الأعراف:127)

والإفســاد في الأرض في تصــورهم هــو أن تكــون لموسى وأخيه هارون الكبرياء في الأرض التي هي الثمرة الأولى التي يجنونهـا من وراء مـواطنتهم ووطـنيتهم، قـال تعالى:﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَـدْنَا عَلَيْـهِ آبَاءَنَـا وَتَكُـونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾(يـونس: 78)

لأن المفاهيم الجديدة والعقائد الجديدة التي تمس ثوابت الأمة تمس روح الوطن وتمس مصالح القائمين عليه، وهي بالتالي خيانة عظمى وإفساد في الأرض.

ولهذا ارتبطت الآلهة في كل الديانات والمذاهب البشرية بالأرض، وكانت الأرض هي أم الآلهة أو أساس وجودها، وكان الأنبياء خونة باعتبار هذه العقائد لأنهم يمسون أصلا من الأصول التي يرتبطون بها ولا يريدون التنازل عن تصوراتهم نحوها، ولذلك كانوا يقابلون بالتهديد وبالإخراج من الأرض، قال تعالى عن المشركين مع رسول الله ﷺ: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنْ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: 76)، وقال عن الفراعنة مع موسى : ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنْ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ (الإسراء:103)

ويخبرنا القرآن الكريم عن إحدى العلل الكبرى التي كان المشركون يتصورونها كافية لترك الدين الجديد الذي يستيقنون صدق مبلغه وأنه رسول رب العالمين، وهو الاستغراق في الوطن والأرض إلى درجة الخوف والجبن، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعْ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(القصص: 57)

والكبرياء في الأرض والتعالي بها وتضخيم الذات من خلالها والفخر على الغير والتكاثر عليه هي الغاية التي يصور بها القرآن حب هؤلاء الوطنيين للأرض، فهم في حقيقة الأمر لا يحبون الأرض وإنما يحبون وجودهم عليها،

ولا يفخــرون على الغــير بــالأرض، وإنمــا يفخــرون عليهم بأنفسهم، لأنهم لو كانوا مواطنين بأرض أخرى لفخروا بهـا وأحبوها وتعلقوا بها.

والنماذج القرآنيــة عن المســتعلين في الأرض كثـيرة، منهـا نمـوذج الفـرد المتعـالي فرعـون، قـال تعـالى :﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُــذَبِّحُ أَبْنَــاءَهُمْ وَيَسْــتَحْيِي نِسَــاءَهُمْ إِنَّهُ كَــانَ مِنْ الْمُفْسِدِين﴾(القصص:4)

ومنها نموذج المجتمع المتعالى قرية عاد، قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا عَـادٌ فَاسْـتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْـرِ الْحَـقِّ وَقَـالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَـدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾(فصلت:15)

وتعالي فرعون صـاحب الأرض الخصـبة الـذي تجـري من تحتـه الأنهـار مـع تعـالي عـاد صـاحبة الأرض القاسـية الجافة يبين أن الأرض لم تكن محبوبة لذاتها وإنما لكونهـا إسقاطا للأنا.

وانطلاقــا من هــذا التعــالي في الأرض الــذي جعــل أصحابها يعتقدونها ملكا لهم، كان الأنبيـاء يعرفـون قـراهم أن هــذه الأرض أرض اللــه لا أرضــهم، وأنهم ســيكونون مغتصــبين مفســدين إن نســبوها إلى أنفســهم، والقــرآن الكريم يذكر عن نبي الله صالح عليـه السـلام لبيـان ذلـك أربعــة أســاليب من خطابــه لقومــه الــذين اشــتد تعلقهم بــالأرض إلى الدرجــة الــتي حجبتهم عن الســماء، قــال تعالى :﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَـالَ يَـاقَوْمِ اعْبُـدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَـةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَـذِهِ نَاقَـةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ

فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(الأعراف:73)

فالأرض أرض الله لا أرض عـاد أو ثمـود، وسـبب كـل الأخطاء التي يتعامل بها الإنسان مع الأشـياء هي اعتقـاده ملكيتـه لهـا، والـتي تجعلـه يتصـور حريتـه المطلقـة في التعامل معها كما يهوى وكما ترغب نفسه.

ولهذا كان الأنبياء يخاطبون قـومهم بمنطـق النعمـة لا بمنطق الأشياء، لأن النظر إلى النعمة والآلاء بهذا الاعتبـار يجعل منها عبودية خالصة لله لا حجابا عن الله، قال تعالى عن خطاب صالح لقومـه: ﴿ وَاذْكُـرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَـاءَ مِنْ بَعْدِ عَـادٍ وَبَـوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِـذُونَ مِنْ سُـهُولِهَا قُصُـورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف:74)

ونلاحظ إعجاز النص القرآني في ترتيبه ذكر آلاء اللـه على ذكر النعم، وترتيبه عدم الإفساد في الأرض على ذكر آلاء اللـه، لأن من رأى الأشـياء من اللـه لا يتضـرر بهـا ولا يضر غيره، ومن رآها من نفسه انشغل بها، فأهلـك نفسـه وألحق الفساد بغيره.

ولهذا كان صالح عليه السلام يخاطب قومه ويـذكرهم بـأنهم خلفـاء في الأرض بجعـل اللـه لينفي عنهم الشـعور بتملك الأرض أو التضخيم الزائد لأنفسهم، قال تعالى على لسان صالح عليـه السـلام :﴿ هُـوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْـهِ كُفْـرُهُ وَلَا يَزِيـدُ الْكَـافِرِينَ كُفْـرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيـدُ الْكَـافِرِينَ كُفْـرُهُمْ إِلَّا خَسَـارًا﴾ (فاطر:39)

واعتبـارهم خلائـف يـنزع عنهم زهـو التملـك، واعتبـار

خلافتهم جعلا وليست ذاتية تنفي عنهم الأنا التي قد تضخم تصورهم للخلافة إن تصوروها نابعة منهم واستحقاقا لهم.

وبمـــا أن ثمـــود كـــانت تهـــوى العمـــران والحضـــارة العمرانية، وتشعر أن ذلك العمران منهـا وبهـا كـان صـالح يخاطبهم بأن قدرتهم التعميريـة من اللـه نعمـة من نعمـه كنعمة الأرض، قال تعالى :﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَـالَ يَاقَوْمِ اعْبُـدُوا اللَّهَ مَـا لَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْـرُهُ هُـوَ أَنشَـأَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْـهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾(هود:61)

والعمران والمساكن التي يتشكل منها الـوطن كـانت ولا زالت حجابـــا من الحجب العظمى الـــتي تحـــول بين الخلق وبين السماء ومسـمارا من المسـامير الـتي تثقلهم إلى الأرض، وكلمـا ارتفـع بنيـان النفس البعيـدة عن اللـه كلما ارتفع طغيانها، فتجبر الرومان كان وليـدا من قسـاوة حجـارة مسـارحها، وتعـالي الفراعنـة كـان أثـرا للصـروح المشيدة التي أرادوا بهـا أن يصـلوا إلى السـماء، والظلام الروحي الـذي يطغى على الشـوارع الأمريكيـة والأوروبيـة ظلال من ناطحـات السـحاب الـتي يتيـه بهـا الغـرب على الشرق.

ولهذا جعل الرسول ﷺ تعالى العامة البسطاء بالبنيان علامة من علامـات السـاعة، لأن انشـغال هـؤلاء بالتعـالي يـــدل على أن تلـــك المفـــاهيم ســـيطرت على المجتمـــع سيطرة لا يخلصهم منها إلا قيام الساعة.

ومنطق أن الأرض لله وأن الاسـتخلاف فيهـا بيـد اللـه هـو الـذي كـان يصـحح بـه موسـى عليـه السـلام التصـور الإســـرائيلي للأرض والـــتي جعلتهم أذلاء مستضـــعفين

يسـامون الخسـف ولا تتحـرك أنفسـهم للخـروج من ذلـك الهوان، قال تعالى :﴿ قَـالَ مُوسَـى لِقَوْمِـهِ اسْـتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(الأعراف:128)

وهذا النص يشير إلى أن اعتقادهم القديم بـأن الأرض للبشر أو لبعض البشر هو سبب الاستضعاف والهوان.

وخلافة الإنسان في الأرض قاعدة من قواعد التصــور الإسـلامي للإنسـان تعرفـه بحقيقتـه وحقيقـة الأرض الـتي يسكن فيها ويسكن إليها، قال تعـالى :﴿ وَهُـوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَـعَ بَعْضَـكُمْ فَـوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـاتٍ لِيَبْلُـوَكُمْ فِي مَـا آتَـاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَـرِيعُ الْعِقَـابِ وَإِنَّهُ لَغَفُـورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام:165)

وقال تعـالى للملائكـة حين كـان آدم مشـروعا خلقيـا جديدا ينتظـر محلـه للـبروز: ﴿ وَإِذْ قَـالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَـةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِـدُ فِيهَـا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَـدِّسُ لَـكَ قَـالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُون﴾ (البقرة:30)

ولتأسيس هذا المفهوم الذي يقوم على نسبة الأشـياء لله ليأخذه الإنسان بعد ذلك من اللـه هـو الـذي من أجلـه يكرر القرآن نسبة الأرض لله وفي كل مـوطن يحتـاج إلى بيـان تلـك النسـبة، قـال تعـالى :﴿ وَلِلَّهِ مُلْـكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يخْلُـقُ مَـا يَشَـاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة:17)

وقد وردت هذه الآيـة عقب قولـه تعـالى :﴿ لَقَـدْ كَفَـرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَـرْيَمَ قُـلْ فَمَنْ يَمْلِـكُ

مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾(المائدة:17) ليبين تهافت العقول البشرية التي ألهت المسيح وقصر نظرها الذي جعلها تسلم زمام الألوهية لإنسان في أرض هي جزء من كون فسيح لا نهاية له، وهو دليل على عمى من اتخذوا آلهة من الأرض أو من أي كوكب في السماء، فكل كوكب صفر في مساحة الكون وحجمه وأبعاده وجميع اعتباراته، ولهذا جاء التعبير القرآني يعبر عن ملك الله الواسع للأرض والسماء وما بينهما وكل شيء، ذلك الملك الذي يتصرف فيه كما يريد، لا معقب لحكمه ولا راد لأمره.

والقرآن الكريم يبين ـ نتيجة لذلك ـ أن كل ما على هذه الأرض من تيسيرات لم تفرضها التطورات الجيولوجية العمياء ولا التقلبات الزمنية المتطاولة وإنما دبرها الله لتستقبل الإنسان وتسخر لخدمته، قال تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الزخرف:10)، والمتأمل في الأرض وفي التيسيرات الموجودة بها يرى مدى انطباق هذه الصفة على الأرض مقارنة بالكواكب الكثيرة المرئية.

والقرآن الكريم يفصل بعض وجوه هذا التمهيد ليبين من خلالها أن الله هو الفاعل والممهد والمدبر لا التطورات الجيولوجية العمياء، قال تعالى :﴿ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾(الضحى:6)

ودعا إلى النظر إلى تسطيحها وتهيئتها بقوله تعالى :﴿ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾(الغاشية:20)

وأقسم بها بوصفها تتصدع وتنشق ليخرج منها الخير الكثير بذلك التصدع، قال تعالى :﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾

(الطارق:12)

وفصـل في بيـان الـترتيب الـذي رتبـه اللـه تعـالى للإنسـان على الأرض بقولـه تعـالى: ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْـدَ ذَلِـكَ دَحَاهَاأَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ (النازعات:30 ـ 33)

ولهـذا أشـار تعـالى بعـدها إلى النظـر بهـذا المنظـار للأرض نظـر اعتبـار لا نظـر افتخـار، قـال تعـالى :﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِين﴾ (الذاريات:20)

واليقين في القرآن لا يشير فقـط إلى اليقين العقلي، بل يشير كذلك إلى نفس قويـة مكتملـة تنـدمج فيهـا قـوة العقل مع نقاء الشعور مع بعد النظر.

وهذا اليقين هو الذي يجعلها ترى أثـر رحمـة اللـه في كل مظهر من المظاهر التي ينسبونها للطبيعة، قال تعالى :﴿ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِهَـا إِنَّ ذَلِـكَ لَمُحْيِي الْمَـوْتَى وَهُـوَ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ﴾ (الروم:50)

وهـو الـذي يجعلهـا تـرى الأرض معلقـة بحفـظ اللـه وإمسـاكه، منتظمـة في سـلك الكـون لا بجاذبيـة عميـاء تطـرح ألـف سـؤال محـير على من يرضـى بقيوميتهـا من دون الله، قال تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (فاطر:41)

وهذا التصور هو الذي يحفظ المـؤمن من الوقـوع في براثن التصورات الخرافية، قـال ابن عبـاس لرجـل مقبـل من الشام: من لقيت بـه؟ قـال: كعبـا، قـال: ومـا سـمعته

يقول؟ قال: سمعته يقول: إن السموات على منكب ملك، فال: كذب كعب، أما ترك يهوديته بعد! إن الله تعالى يقول: :﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا ﴾ (فاطر: 41)

فإذا اطمأن المؤمن الموقن إلى هذه الحقيقة وعلم أن الأرض لله خلقا وتهيئة وتصريفا جاءت النصوص لتبين أن هذه الأرض المخلوقة عبد مطيع لله تحمل من عليها بأمر الله، والمواطن الحقيقي الذي تفرح به الأرض قبل أن يفرح بها هو الذي يشاركها تسبيحها لله، قال تعالى يبين نشأة الأرض وطاعتها لله في تلك النشأة التي أودعت فطرتها:﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت:11)

وهذا العهد الذي قطعته الأرض والسماء على نفسيهما بطاعة الله يتحد مع العهد الذي قطع على بني آدم وهم في عالم الذر إلا أن الفرق الوحيد والجليل بينهما هو أن الإنسان ينسى ويبتلى بنسيانه، أما غيره من المخلوقات فلا تنسى أبدا الفطرة التي فطرت عليها، قال تعالى :﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾(الأعراف: 172)

والجمع بين الإنسان الكائن الحي العاقل مع الأرض والسماء التي نراها جامدة لا روح فيها ولا عقل يشير إلى النظرة القرآنية للأرض والسماء وكل شيء، وهو أن الحياة تدب فيها جميعا، الحياة التي لا ندركها نحن لأننا

من عالم مختلف ومن جنس مغاير.

ومن أنانية البشرية حصرها صورة الحياة في مظـاهر الحيـاة الـتي تراهـا، والـتي لا تعـدو في معظمهـا تـأمين التركيب الحي من الاختلال، فالأكسوجين والماء والكربون وغيرهـا من التركيبـات والعناصـر لا يعـدو دورهـا حفـظ الـتركيب وإمـداده بطاقـة الحيـاة الـتي نتصـورها ونقصـر الحيـاة عليهـا، ولهـذا يـذكر القـرآن الكـريم عن الأرض تسبيحها الدائم لله، والتسـبيح لا يصـدر إلا من حي عاقـل، قال تعالى :﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(الصف:1)

وقد وردت هذه الآية في افتتاح ثلاث سور قرآنية هي الصـف والحشـر والحديـد مـع حـذف مـا الموصـولة عن الأرض في سورة الحديد.

وبينت الآيات الكثيرة أن هـذا التسـبيح دائم مسـتمر، كتسـبيح كـل شـيء في الكـون، قـال تعـالى :﴿ تُسَـبِّحُ لَـهُ السَّـمَاوَاتُ السَّـبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَـيْءٍ إِلَّا يُسَـبِّحُ بِحَمْـدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُـونَ تَسْـبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَـانَ حَلِيمًـا غَفُـورًا﴾(الإسـراء:44)، وفي الآيــة الكريمــة إشـارة إلى العقول الـتي تنكـر كـل مـا لا تفقهـه لتردهـا إلى حقيقتهـا العــاجزة القاصــرة عن ســماع وإدراك حقــائق الكــون الكثيرة.

والآثـار الكثـيرة تؤكـد هـذا المعـنى القـرآني وهـذه الحقيقة الكونية، فعن ابن مسعود أنـه قـال :(كنـا نسـمع تسبيح الطعام وهو يؤكـل)، وفي حـديث أبي ذر أن النـبي ﷺ أخذ في يده حصيات فسمع لهن تسبيح كحـنين النحـل، وعن أنس عن رسـول اللـه ﷺ أنـه دخـل على قـوم وهم

وقـوف على دواب لهم ورواحـل، فقـال لهم :(اركبوهـا سالمة ودعوها سالمة ولا تتخذوها كراسـي لأحـاديثكم في الطرق والأسـواق، فـرب مركوبـة خـير من راكبهـا وأكـثر ذكرا لله منه)[1]

ويـبين القـرآن الكـريم أن هـذا الكـائن الحي الـذي يسمى الأرض صاحب مشاعر، فهو يكاد يتفطر من الكفـر الذي يقع عليه،قال تعالى :﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْـهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾(مريم:90)

ويعـبر القـرآن الكـريم عن قمـة المشـاعر الوجدانيـة التي تصدر من الأرض في مواقفها المختلفة من المؤمنين والكافرين والمفسدين والمصلحين، فالأرض لا تعرف غـير هذه المصطلحات، قال تعالى :﴿ فَمَـا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّـمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾(الدخان:29)

وقد نفى ابن عباس المعنى المجازي الذي تفسـر بـه أمثال هذه الآيات، نتيجة عدم الفقـه في حقـائق تصـرفات الأكوان، فقال حين سأله بعضـهم عن هـذه :نعم إنـه ليس أحد من الخلائق إلا وله باب في السـماء منـه يـنزل رزقـه وفيـه يصـعد عملـه، فـإذا مـات المـؤمن فـأغلق بابـه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله وينزل منه رزقه ففقده بكى عليه، وإذا فقده مصلاه من الأرض الـتي كـان يصـلي فيها ويذكر الله تعالى فيهـا بكت عليـه، وإن قـوم فرعـون لم تكن لهم في الأرض آثـار صـالحة، ولم يكن يصـعد إلى الله تعالى منهم خير فلم تبك عليهم السماء والأرض)[2]

---

[1] رواه أحمد 3/439 (15714) و3/440 (15731)

[2] تفسير الطبري (25/74)

وهذا التفسير يوحي بإشارات علمية كثيرة قد تكشف عنها الأيام في علاقـات السـماء والأرض، وعلاقـة الصـلاة بالكون، ونحن نعرف الآن كثيرا من العلاقـات الـتي كـانت تعتبر في يوم من الأيام خرافات وأساطير.

ولأن الأرض بهذه الصورة، صورة الكـائن الحي، يعـبر القرآن الكريم عنـد ذكـر نعم اللـه على عبـاده بمـا يـوحي بتشـبيهها بالحيوانـات المركوبـة الـتي يسـتغل ظهرهـا وضرعها ولحمها وجلدها، وكـذلك الأرض يسـتغل سـطحها وترابهـا وهواؤهـا وثرواتهـا، فهي مـركب وسـفينة فضـائية مزودة بكل الاحتياجات، قال تعالى :﴿ هُـوَ الَّذِي جَعَـلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذَلُـولًا فَامْشُـوا فِي مَنَاكِبِهَـا وَكُلُـوا مِنْ رِزْقِـهِ وَإِلَيْـهِ النُّشُورُ﴾(الملك:15)

ولهـذه المفـاهيم القرآنيـة أثرهـا الكبـير في تصـحيح مفهوم المواطنة والعلاقة بالأرض، والربـط الشـعوري بين الأرض والإنسـان ربطـا لا توثقـه الأنـا والتعـالي والتكـاثر، وإنما يوثقه التوجه الواحد لله بالتسبيح والصـلاة والافتقـار والعبودية.

ولهذا تسلم الأرض بما فيها من حجارة وجبـال وتربـة على المؤمـنين وتفـرح بهم وتسـر بمشـاركتها لهم في تسبيحها، قال رسول اللـه ﷺ : (إني لأعـرف حجـرا بمكـة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن)[1]

وقال عبدالله بن مسعود : (إن الجبـل يقـول للجبـل: يا فلان، هل مر بك اليوم ذاكر لله تعـالى ؟ فـإن قـال نعم سر به)، وعن أنس بن مالك قال :(ما من صباح ولا رواح إلا تنادي بقاع الأرض بعضها بعضا: يا جـاراه، هـل مـر بـك

1() رواه مسلم 7/58 (6003).

اليوم عبد فصلى لله أو ذكر الله عليك؟ فمن قائلة لا، ومن قائلة نعم، فإذا قالت نعم رأت لها بذلك فضلا عليها)

وقال ﷺ في الحدبث المشهور :(لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شجر ولا حجر ولا مدر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة)[1]

وهذه المشاعر وغيرها هي الأساس النظري الذي تنطلق منه علاقة المؤمن بالأرض، علاقة الرحلة إلى الله بما تقتضيه من صلاح يقدم على المصالح، فالمصالح نتيجة محدودة مؤقتة، والصلاح سير قد يكون عسيرا ولكن نتيجته تحوي المصالح الحقيقية للإنسان، والتي ينشغل عنها بمصالح التركيبة المعدنية والعضوية والغازية التي تشده إلى الأرض وتشعره بملكيته لها.

ولهذا نرى في القرآن الكريم الترغيب الكثير بالهجرة في سبيل الله وعدم الركون إلى الأرض إن كان في الركون إليها إضرارا بالمصالح الشرعية التي من أجلها سخرت الأرض مركبة طيعة للإنسان، قال تعالى :﴿ يَاعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِي﴾ (العنكبوت:56)

والحديث عن السعة هنا يشير إلى الهجرة إذا ما اقتضى تحقيق العبادة ذلك، ولهذا لا تعذر الملائكة الذين يموتون مستضعفين مع أن لهم إمكانيات التنقل والبحث في الأرض عن مواطن جديدة لتحقيق العبودية، هم كالمسافر الذي يبحث في القاطرة أو الطائرة عن الموضع المناسب له.

1() رواه مالك في الموطأ 176. وأحمد 3/35 (11325) وفي 3/43 (11413) والبخاري 1/158.

قـــال تعـــالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَــةُ ظَــالِمِي أَنفُسِهِمْ قَـالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَـالُوا كُنَّا مُسْتَضْـعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَـالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِـعَةً فَتُهَـاجِرُوا فِيهَـا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾(النسـاء:97)، فاستضـعاف هـؤلاء الظـالمين لأنفسـهم لم يكن بسـبب عجـزهم وإنمـا بسبب ركونهم وتثاقلهم إلى الأرض، ولهـذا جـاءت الآيـات بعدها تستثني الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سـبيلا، فأولئـك عسـى اللـه أن يتـوب عليهم لضـعفهم المـادي الحقيقي لا الضعف النفسي المجازي.

ولهـذا يقص القـرآن الكـريم علينـا كثـيرا من قصـص المهــاجرين في ســبيله بــدءا من الأنبيــاء الــذين لا نكــاد نستثني واحدا منهم من الهجرة.

والقـرآن الكـريم يـرغب في الهجـرة في سـبيل اللـه ويعــد صــاحبها الفضــل العظيم الــدنيوي والأخــروي، قــال تعـــالى :﴿ وَمَنْ يُهَـــاجِرْ فِي سَـــبِيلِ اللَّهِ يَجِـــدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْـرُجْ مِنْ بَيْتِـهِ مُهَـاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَـعَ أَجْـرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَـانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(النساء:100)

فالمهاجر في سـبيل اللـه في حمايـة اللـه وفي سـعة من فضل الله وإن مـات فهـو من الشـهداء، وقـد ورد في الحـديث قولهﷺ :(من خـرج حاجـاً فمـات، كتب لـه أجـر الحاج إلى يوم القيامة، ومن خرج معتمراً فمات، كتب لــه أجر المعتمر إلى يوم القيامة، ومن خرج غازيـاً في سـبيل الله فمات، كتب له أجر الغازي إلى يوم القيامة)[1]

1() أبو يعلى في مسـنده (6357)، وفي معجمـه (101)، والطَّبرانيُّ في الأوســـط (5321)، وابن ابي حـــاتم في العلـــل (973)، والبَيهَقِيُّ في الشعب (3806)

والهجـرة في الشـرع، بهـذا المفهـوم، لا تقتصـر على الرحلـة من بلـد الحـرب إلى بلاد الإيمـان، بـل تتعـداه إلى آفاق الحياة الواسـعة، ولهـذا جـاءت الآيـات الكثـيرة تحث على السـير في الأرض للعلم وللبحث وللاعتبـار، قـال تعالى :﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْـفَ بَـدَأَ الْخَلْـقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ ﴾(العنكبوت:20)، وقـال تعـالى :﴿ قُـلْ سِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾(النمل:69)، وغيرهـا من الآيات الكثيرة وهي كلها دعـوة إلى التخلص من قيـود التراب والوطن والتثاقل إليهما.

وهذه المفاهيم هي الـتي جعلت كثـيرا من الصـالحين يسـيحون في الأرض، ينشـرون دين اللـه ويربـون النـاس عليه ويتعلمون العلم النافع، فمات بعضهم مشـرقا ومـات آخر مغربا لتشهد الأرض على تضحيتهم بالأرض في سبيل اللـه، تلـك التضـحية الـتي عوضـهم اللـه بهـا التمكين في الأرض، قال تعالى :﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُـوا مِنْكُمْ وَعَمِلُـوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَـدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْـرِكُونَ بِي شَـيْئًا وَمَنْ كَفَـرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ﴾(النور:55)

وهذا الوعد الحق ليس خاصا بالصـحابة بـل هـو عـام لكل عبد صالح، قال تعـالى :﴿ وَلَقَـدْ كَتَبْنَـا فِي الزَّبُـورِ مِنْ بَعْدِ الـذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَـا عِبَـادِي الصَّـالِحُونَ﴾ (الأنبيـاء: 105)

وهكذا لا يخسر المؤمن شيئا بعدم تعلقه بالأرض، لأن الأرض لن تضـيع منـه إن تـرك تعلقـه القلـبي بهـا وركونـه

وتثاقله الجسدي إليها، بل إنه سيكسب بـدل ذلـك التعلـق آفاقا جديدة ورؤى جديدة تجعل منه عالمي النزعـة واسـع الطموح غـير محـدود بالحـدود الجغرافيـة البسـيطة الـتي تقيده بقيودها وتصوراتها وتحصره في عالم التراب مع أنه أرفع من التراب.

الريح

الفرح بـالريح من أنـواع الفـرح المـذموم في القـرآن الكريم، فلماذا ذم ؟

أليست الـريح نعمـة من النعم العظمى الـتي يتوقـف عليهـا اسـتمرار الحيـاة على هـذه الأرض؟ وهي بالتـالي كالشمس والقمـر والمـاء وكـل هـذا الكـون الكبـير الـذي يفتقر الإنسان إليه في كل لحظة كمـا تفتقـر كـل أصـناف الأحياء؟

أليس هذا الغلاف الغازي الذي يحيـط بـالأرض والـذي تتشكل من حركته الرياح هو الغلاف الغازي الوحيـد الـذي تتأقلم معه حياة الإنسان على هذه الأرض؟

أليس هو الذي يلقح السـحاب فيمطـر، ويلقح النبـات فيثمر، ويحرك السفن في البحر، ويحرك طـواحن الهـواء، ويشـكل نوعـا من أنـواع الطاقـة الـتي يسـتظل بخـدماتها الإنسان؟

إن كل ذلك حقائق علمية واقعية لا يجـادل فيهـا، ولم يرد القرآن بنفيها، بـل ورد فيـه مـا يؤكـدها، ولكن يؤكـدها بغير الأسلوب الذي تعوده النـاس في دراسـتهم للمظـاهر الطبيعية، حيث يجعلون الظاهرة ذاتا قائمة بنفسها تحركها الطبيعـة العميـاء كيـف تشـاء، ويجعلـون منها كـذلك ذاتـا عمياء لا تبصـر ولا تسـمع ولا تعقـل مـا تعمـل، وليس لهـا وظيفة أو رسـالة تؤديهـا، هي كـالمجنون الـذي توضـع في يده قنبلة ليرميها متى يشاء وهو يضحك ويلهو.

وهذا التصور للريح، والمشاعر الناشئة عنه هـو الـذي

ورد ذمها في القرآن الكريمة بصيغة غير مباشرة في قوله تعالى :﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمْ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنْ الشَّاكِرِينَ﴾(يونس:22)

تبدأ الآية بلفظ التسيير المشتق من السير وتخبر أن سير الإنسان في البر والبحر من تقدير الله وفعل الله وخلق الله، حتى حركات أقدامه وهو يرفعها ويخفضها ويطوي بها النجاد والوهاد من تقدير الله، تلك الحركات التي قد يختال بها الإنسان ويزهو ويطاول الجبال.

ثم ينتقل المشهد إلى البحر معتمدا أسلوب الخطاب الذي يحمل الأنس ويشعر المستمع بالقرب، ولكنه فجأة يلتفت إلى الغائب، ويتحدث بصيغة الغائب ليشعر بالنفور والإبعاد والحجاب، ويخبر عن الريح الطيبة التي تحرك السفن الشراعية، ويأتي الإنكار على موقفهم حيث فَرِحُوا بِهَا ولم يفرحوا بمرسلها، أولم يكونوا يعتقدون أن لها مرسلا، حينذاك ﴿ جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمْ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾، وحينذاك عرفوا ربهم والتجئوا إليه بصدق ووعدوه أن يشكروه، ولكن المشهد ينتقل بعد ذلك إلى سكون الريح وعودة الرياح الطيبة فإذا بهم يعودون إلى طبعهم وبغيهم وعتوهم، قال تعالى :﴿ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (يونس:23)

ومثل هذه النفوس التي تتقلب تقلب الرياح غير جديرة بأن تفرح الفرح الحق، الفرح الذي يفرحه

المؤمنون، لأن المؤمنين يفرحـون بنعمـة الـريح لا بـالريح، ويعتبرونها رسائل من الله، رسائل ود فيستبشرون بفضل الله، أورسـائل تخويـف فـيرجعون إلى اللـه ويثوبـون إليـه ويستغفرونه، يحسنون الظن به في نفس الـوقت الـذي لا يأمنون مكـره، لأن ذلـك يـؤدي إلى الغـرور، والغـرور هـو القاصمة التي تحجب الإنسان عن ربه وتستعبده لنفسه.

ولذلك كان ﷺ ـ كما تصف عائشـة ــ قـالت: مـا رأيت رسـول اللـه ﷺ ضـاحكا حـتى أرى منـه لهواتـه إنمـا كـان يتبسم، قالت: وكان إذا رأى غيما أو ريحا عرف في وجهـه قالت: يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجــاء أن يكـون فيـه المطـر وأراك إذا رأيتـه عـرف في وجهـك الكراهية فقال: يا عائشة ما يؤمـني أن يكـون فيـه عـذاب عذب قوم بـالريح، وقـد رأى قـوم العـذاب فقـالوا :﴿ هَـذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ (الاحقاف: 24)[1]

وقال أنس بن مالك: (كـانت الـريح الشـديدة إذا هبت عرف ذلك في وجه النبي ﷺ)[2]

وكـان ﷺ ينهى عن سـبها أو التوجـه إليهـا بالمـدح أو الذم، بل يتوجه إلى الله فيسأل من خيرها ويستعاذ به من شرها، كان ﷺ يوصـي أمتـه بقولـه :(الـريح من روح اللـه تأتي بالرحمة وتـأتي بالعـذاب، فـإذا رأيتموهـا فلا تسـبوها وسلوا الله خيرها واستعيذوا به من شرها)[3]

1() رواه البخــاري 6/167، وفي (الأدب المفــرد) (251) ومســلم 3/26.

2() رواه أحمد 3/159 (12647)

3() رواه البخاري في الأدب المفرد 720 وأبو داود 5097 وابن ماجة 3727 والنسائي في الكبرى 10701.

وكان من سننه ﷺ أن يقول إذا عصفت الريح :(اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعـوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به)[1]

بهذا التوحيد علمنا النبي ﷺ كيـف نوحـد اللـه في كـل الأشياء، وكيف لا نأمن مكره مع كل شيء، لأن كل شـيء مجند لله خاضع لأوامره حتى الريح الـتي نراهـا طيبـة قـد تحمل في طياتها جرثوم الموت القاتل إذا أراد الله ذلك.

وقـد كـانت الـريح جنـدا من جنـد اللـه يـوم تحـزب الأحزاب تبغي استئصال شأفة المسـلمين، قـال تعـالى :﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُـودٌ فَأَرْسَـلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًـا وَجُنُـودًا لَمْ تَرَوْهَـا وَكَـانَ اللَّهُ بِمَـا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (الأحزاب:9)، فالريح من الجنود المرئيـة، وغيرها من الجنود غير المرئية.

وجند الله من الريح هي التي نصر الله بها هودا عليـه السلام على قومه، حين أرسل عليهم ريحا بـاردة كـبرودة قلوبهم، في أيام مشؤومات كشـؤم نفوسـهم مقابلـة لهم على تشـاؤمهم من نـبيهم عليـه السـلام، وتحقيـا لطلبهم، قــال تعــالى :﴿ فَأَرْسَــلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًــا صَرْصَــرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَلَعَـذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾(فصلت:16)

وكـانت الـريح قـد جـاءتهم بصـورة يحبونهـا فانتهضـوا مستبشـرين يصـيحون ﴿هَـذَا عَـارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾، فأجـابهم هـود عليـه السـلام بلسـان العـارف بربـه:﴿ بَـلْ هُـوَ مَـا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(الأحقاف:24)

1() رواه عبد بن حميد (167) والترمذي 2252.

قـال ابن عبـاس يصـف ذلـك المشـهد :(أول مـا رأوا العارض قاموا فمدوا أيديهم، فـأول مـا عرفـوا أنـه عـذاب رأوا مـا كـان خارجـاً من ديـارهم من الرجـال والمواشـي تطـير بهم الـريح مـا بين السـماء والأرض مثـل الـريش، فـدخلوا بيـوتهم وأغلقـوا أبـوابهم فقلعت الـريح الأبـواب وصرعتهم، وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال، فكـانوا تحت الرمال سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، ولهم أنين، ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمـال واحتملتهم فـرمتهم في البحر)(2)

وهـو تصـوير دقيـق لمـا نـراه كثـيرا على شاشـات التلفزيون من أنواع الأعاصير، والتي لا نسمع لهـا سـببا إلا حركـات الريـاح وتحـولات الضـغط، والتفسـيرات الماديـة الكثيرة، والتي لا ينكرها القـرآن، وإنمـا ينكـر الاكتفـاء بهـا وتصور أنها فاعلة بذاتها.

ولذلك يخـبر القـرآن الكـريم أن هـذه الظـواهر الـتي نسميها طبيعية هي ظواهر إلهية، ما كـان منهـا خـيرا ومـا كان منها مؤذيا، وأن ما أصاب عـادا منهـا لم يكن يـراد بـه عين عاد وإنمـا كـل عـاد، قـال تعـالى حكايـة عن العـذاب الـذي أنزلـه على المصـريين :﴿ فَأَرْسَـلْنَا عَلَيْهِمْ الطُّوفَـانَ وَالْجَـرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّـفَادِعَ وَالـدَّمَ آيَـاتٍ مُفَصَّـلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾(الأعراف:133)

والآيـة ترسـم حركـة الجليـل والـدقيق، وهي تسـعى جميعـا لتطبـق مـراد اللـه وأمـره، وتجمـع بين الطوفـان العملاق الضـخم وبين القمـل القـزم الصـغير لتـبين أن الشـيء إذا صـار جنـديا للـه يتحـول إلى قـوة خارقـة لا

2() القرطبي:16/175.

يقاومها شيء، لأنها من أمر الله.

وقال تعالى عن الصواعق:﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ (الرعد: 13)، فالله تعالى هو الذي يرسل الصواعق ليصيب بها من يشاء، وقد جاء الفعل بصيغة المضارع الذي يفيد كل حاضر ومستقبل لينفي عن أذهاننا ربط عقاب الله بالأمم السابقة بعاد وثمود وقوم فرعون، وختم بالفاصلة المنبئة عن صفة من صفات الله بأنه شديد القوة وشديد الأخذ لمن أراد لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

وسبب نزول هذه الآية يصور شخصية تمثل نموذجا لكثير من المثقفين الذين يضحكون ملء أفواههم إن سمعوا متدينا يتحدث عن سنن الله الكونية، ويسخرون من تفسير أي ظاهر بغير التفسير الذي يرونه، ولعله لأجل ذلك ورد في الآية وصف للمنكرين بالمجادلين :﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ لأن الذي يجادل في أفعال الله يجادل في الحقيقة في الله، عن مجاهد قال: جاء يهودي فقال: يا محمد أخبرني عن ربك من أي شيء هو ؟ من نحاس هو أم من لؤلؤ أو ياقوت ؟ قال فجاءت صاعقة فأخذته وأنزل الله الآية[1].

وهذا السبب ينطق كل لفظ فيه بصحته، فاليهود مجادلون حاذقون في صنعة الجدل، واليهود ماديون يحبون الذهب واللؤلؤ، وقد عبدوا العجل ولا يزالون يعبدونه من دون الله، وهم الذين أخرجوا للناس مقولتهم (لا إله والحياة مادة)، وهم الذين فسروا الحياة

1() تفسير ابن كثير (4/ 443)

والتاريخ تفسيرا ماديا، وما إيمانهم الظاهر بالله، وما قراءتهم للكتب إلا قشرة يدارون بها خبث نفوسهم.

ولأجل هذا تجيء كل آيات القرآن الكريم المخبرة عن الرياح بلفظ الإرسال لتشعر أنها رسول من الله، والفرح لا يكون بالرسول وإنما بالمرسل:

قال تعالى :﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (لأعراف:57)

وقال تعالى :﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾(الحجر: 22)

وقال تعالى :﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾(الفرقان:48)

وكل هذه الآيات تطفح بالبشر والفرح والرحمة، لتخبر أنها المقصد الحقيقي من إرسال الرياح، فهي التي يحيا بها موات الأرض، ويثمر الزرع وتمتلئ خزائن السحاب، ويرتوي الخلق بمائها الطهور.

ولعله من أسرار القرآن في اختيار الألفاظ أن عامة المواضع التي ذكر الله تعالى فيها إرسال الريح بلفظ الواحد فعبارة عن العذاب، وكل موضع ذكر فيه بلفظ الجمع فعبارة عن الرحمة، ليخبر أن رياح الرحمة كثيرة، وأن ريح العذاب واحدة رحمة من الله، لأن رحمته سبقت غضبه.

بـل إن الريـاح القواصـف والأعاصـير والـريح العقيم والريح الصرصر العاتيـة مـاهي كـذلك إلا ريـاح رحمـة بمـا تلقيه في صدور المؤمنين من خوف من الله ينزع حجــاب الغفلـة والعـادة، ويعيـد للـه في أذهـانهم قدرتـه وتصـرفه المطلق في الكـون، ولـولا الـريح العقيم مـا عـرف فضـل الله بالرياح اللواقح.

ولهذا يأتي التحذير من مكر الله بالتهديد بأمثـال تلـك الرياح، قال تعالى :﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَـارَةً أُخْـرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنْ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَـرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾(الإسراء:69)

والـريح القاصـفة هي الـتي تكسـر الصـواري وتغـرق المـراكب، وهي من أنــواع الريــاح الــتي تــدرس الآن في علوم البحار.

ويصـور مشـهد آخـر الـريح، وقـد نفخت فيهـا الحيـاة، وتحولت إلى جبـار يقصـم ظهـر المشـرك ويهـوي بـه في مكان سحيق، كالمكان الذي يسكن فيه عقله وقلبه، قــال تعـالى :﴿ حُنَفَـاءَ لِلَّهِ غَيْـرَ مُشْـرِكِينَ بِـهِ وَمَنْ يُشْـرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْـرُ أَوْ تَهْـوِي بِـهِ الـرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾(الحج:31)

ولكن التهديد لا يقتصـر على هـذه الأنـواع من الريـاح العاتيـة، بـل يهـدد اللـه تعـالى الآمـنين من مكـره بالريـاح السواكن، لأن سكون الـريح كعتوهـا كلاهمـا إذا شـاء اللـه يتحـول إلى عـذاب، قـال تعـالى :﴿ إِنْ يَشَـأْ يُسْـكِنْ الـرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَـاتٍ لِكُـلِّ صَـبَّارٍ شَكُورٍ﴾(الشورى:33)

فهذه الآية ضربت مثالا عن تـأثير سـكون الريـاح على السفن الشراعية التي تستغل حركة الرياح لتمخـر عبـاب البحر، ويطبق مفهومها كذلك على ركـود كـل شـيء على ظهر الأرض إن أمر الله الرياح أن تسكن.

وبعد أن يعرف المؤمن أن الريح فضل من فضل الله وجنـد من جنـده لا قيـام لهـا بـذاتها يعـبر منهـا إلى اللـه ويستدل بها عليه، ولهذا جاءت الآيـات الكثـيرة تجعـل من الريح آية، والآية في تصور المؤمن لا تعني الاسـتدلال بهـا على الوجود، لأن اللـه في ذهنـه لم يغب حـتى يحتـاج إلى دليل يدل عليـه، وإنمـا الآيـة رسـالة من اللـه وحـرف من كلمات الله التي يخاطب بها الكون كل حين:

قـــال تعـــالى :﴿ إِنَّ فِي خَلْـــقِ السَّـــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْـكِ الَّتِي تَجْـرِي فِي الْبَحْـرِ بِمَـا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنـزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّـمَاءِ مِنْ مَـاءٍ فَأَحْيَـا بِـهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُـلِّ دَابَّةٍ وَتَصْـرِيفِ الرِّيَـاحِ وَالسَّـحَابِ الْمُسَـخَّرِ بَيْنَ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَـاتٍ لِقَــوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(البقرة:164)

وقال تعالى :﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِـلُ الرِّيَـاحَ فَتُثِـيرُ سَـحَابًا فَيَبْسُـطُهُ فِي السَّـمَاءِ كَيْـفَ يَشَـاءُ وَيَجْعَلُـهُ كِسَـفًا فَتَـرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَـاءُ مِنْ عِبَـادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُون﴾(الروم:48)

وقال تعالى :﴿ وَاخْتِلَافِ اللَّيْـلِ وَالنَّهَـارِ وَمَـا أَنـزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَـا وَتَصْـرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(الجاثية:5)

وقال تعالى :﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِـلَ الرِّيَـاحَ مُبَشِّـرَاتٍ

وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(الروم:46)

وهـذه الآيـة تخبرنـا في إيجـاز جميـل عن التصـور الحقيقي للرياح والموقف منهـا، فهي مبشـرات ووسـائط رحمة إلهية ومحركات للفلك، وذلك يعني أنهـا وسـيلة من وسائل الطاقة، أما موقف المؤمن منها فموقفان :موقـف حـركي باسـتغلال طاقتهـا لاسـتدرار فضـل اللـه عليـه، وموقـف شـعوري وتصـوري بـإدراك أنهـا من فضـل اللـه وشكر الله على ذلك، والفرح بها لأجل ذلك.

ولكن هذا الموقف الذي تـدعو إليـه الآيـة لا يقـوم بـه كمـا تنص الآيـات الأخـرى إلا القـوم العـاقلون، ومجيء الآيات بصيغة الجمع ﴿ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُـونَ﴾ يـدل على أن العقـل المـؤمن عقـل جمـاعي ليس عقلا اسـتبداديا، فهـو يتبصـر ويبحث، وفي نفس الـوقت يسـمع، لأن الاسـتبداد بـالرأي والفـرح بالعقـل المجـرد حجـاب من الحجب الـتي تحول بين الإنسان والحق.

وتخـاطب الآيـات المشـركين ليتبصـروا في حركـات الرياح لعلهم يرون آلهة أخرى مع الله، الرياح التي تتحرك كل مـرة في اتجـاه، فتميـل معهـا قلـوبهم فرحـا وقنوطـا بحسب اتجاههـا، قـال تعـالى :﴿ أَمَّنْ يَهْـدِيكُمْ فِي ظُلُمَـاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِـهِ أَئِلَـهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(النمل:63)

ويستدل بها تعالى على البعث الذي ينكره المشركون والطبـائعيون والشـيوعيون، ويحـرف معنـاه اليهـود والمسيحيون والبوذيون ليعرفوا من الرياح مفاهيم جديـدة أخطـر من الخـبز والمـاء، لأنـه ليس بـالخبز وحـده يعيش

الإنسان.

ورحمة الله بالرياح عامة تشمل المعدة والرئة والعقل والقلب، قال تعالى :﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾(فاطر:9)

ومن المفاهيم الجديدة التي يدعو القرآن إلى الاعتبار بها من حركات الرياح مفهوم الحياة الدنيا فهي تشبه الهشيم الذي تذروه الرياح، قال تعالى :﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾(الكهف:45)

ومفهوم العمل الذي لا يراد به وجه الله، قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾(إبراهيم:18)

ومفهوم الإنفاق الذي لا يوضع في مواضعه الشرعية، ولا يراد به وجه الله تعالى، قال تعالى :﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمْ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (آل عمران:117)

وأخيرا يبين القرآن الكريم أن الرياح التي هي جند من جند الله تصير جنديا خاضعا للمؤمن إن تخلى عن أنانيته وتحلى بالعبودية لربه كما حصل ذلك لسليمان عليه السلام قال تعالى :﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾

(الأنبيـاء:81)، وقـال تعـالى :﴿ فَسَـخَّرْنَا لَـهُ الـرِّيحَ تَجْـرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾(ص:36)

بهذا التصور للـريح ينتفي من المـؤمن الفـرح الزائـل الباطـل بهـا، الكـاذب على الحقيقـة، والـذي لأجلـه ذمـه القرآن الكريم، وينشأ بدله فرح جديد بكونها نعمة من الله ورسـالة من رسـائله وفضـل من فضـله، فلا يكـون عبـدا لحركاتها المختلفـة، تفيء بـه ذات اليمين وذات الشـمال، بل يكون عبـدا خالصـا للـه، واللـه لا تعتريـه الحـوادث، ولا يصيبه التغير، والعاقل هـو الـذي يـركن إن ألم بـه الخطـر إلى البناء الثابت لا إلى البناء الذي تهده الرياح.

القوميات والشعوب والقبائل والآباء والأنساب.. بوق من أبواق الشيطان، ينفخ فيه، فيصدر مع صداه الضارب في أحقاب التاريخ أكثر الحروب، وأبشع العصبيات، وأرذل الجرائم الإنسانية.

عندما انطلق الرومان من أرضهم الخصبة، ومعيشتهم الميسرة، وفلسفتهم وأساطيرهم لم يكونوا يحملون مع جيوشهم الجرارة من فضل حضارة وإنسانية، ليساهموا في رفعة الإنسان، بل كان زادهم الوحيد، وهاجسهم الوحيد، ودافعهم الوحيد هو أن يعرفوا العالم الذي نعتوه بالبربرية من هو الإنسان الروماني وأي دماء تسري في عروقه.

وعندما أباد خلفهم من الأوروبيين سكان أمريكا وأستراليا، واستعبدوا سكان إفريقيا واستعمروا سكان آسيا لم يكونوا يشعرون بأي ألم، وهم يستغلون الأرض، ويستسخرون البشر، ويمصون دماءهم، لأنهم كانوا يعتقدون، بل قد يصرحون، بأنهم الجنس السامي، والإنسان الممتاز، الإنسان الذي يجوز له أن يستغل من دونه كما يستغل سائر البشر النبات والحيوان.

ومرت حقبة على البشرية تصوروا أنهم تخلصوا من العبودية والاستعمار، وأن الإنسان ترقى ليمحو آثار الشعوبية والقبلية والعرقية، وأن العالم يتجه نحو الإنسان المفصول عن أعراقه، ولكن الأخبار التي تبث كل يوم، بل كل ساعة تكذب كل هذا.

فالآلاف يموتون في أنحاء العالم بجريمة من جرائم

ذلـك الإنسـان الأشـقر، فلا يلتفت العـالم لهم، ولا يـترحم عليهم، ولا يعــزي ذويهم في مصــابهم، لأن المــوت هــو المصـير الحقيقي لهم، وهــو الخاتمــة السـعيدة لمأسـاة وجودهم، فإذا ما جرح فرد من أفراد ذلك الجنس المتمـيز انتهض البشر جميعا لمداواة جراحه، وإذا ما فقـد انتهضـوا جميعــا للبحث عنــه، فــإذا مــات تحولــوا جميعــا معــزين ومواسين، والويل لمن لم يفعل كل ذلك، أو بعض ذلك.

هـذه الشـعوبية والقبليـة والعرقيـة هي الـتي وقفت قديما حائلا بين الشعوب واتبـاع أنبيائهـا، وهي الـتي تقـف حاليـا بين هـذا العـالم الـذي يـدعي معرفـة كـل شـيء، ويتصـور أنـه حقـق كـل شـيء، وبين الالتفـات للبحث عن التفســير الصــحيح للكــون، والبحث الجــاد عن حقيقــة الإنسان.

نعم.. توجد آلاف الدراسـات في هـذا الميـدان، ولكن الجذور التي امتلأت القلوب زهوا بهـا وبطـرا تحـول بينهم وبين النظرة الجادة المـؤثرة، فهم قـد يقبلـون أي شـيء، ولكن أن يقبلوا بدين بدوي يسكن الجزيرة، فذلك شيء لا يخطر على بال المستعبدين بعبودية الجذور.

قد يقال : بأن المسيح من الشام، فكيف يبجلونه، بـل يعبدونه؟

وما درى هذا السائل علاقة هؤلاء بالمسـيح، ومـا درى أصل ارتباطهم بالمسيحية، وإلا كيف يفسر انتهاض العـالم المسيحي لأبراج التجارة في الوقت الـذي لم ينبسـوا فيـه ببنت شفة أسفا على كنيسة المهد.

إن عبادة الأسلاف ـ كمـا ينص القـرآن الكـريم، وكمـا يفسـر التـاريخ ــ ليسـت خاصـة بالبـدائيين، بـل هي دين

البشرية التي ابتعدت عن الدين الحق، هي دين الأوروبيين والأمريكيين والهنود والصينيين، وكل القوميات والعرقيات التي نبتت في أوطاننا لتفرق بين الأخ وأخيه.

يقول تعالى عن منطق القرى في جوابها لأنبيائها، وهي تستند إلى أكبر كذبة تحول بينها وبين اتباع الحق، أو على الأقل الاستماع إلى الحق: ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ (الزخرف:23)

وفي هذه الآية إخبار عن حقيقة اجتماعية، هي أن الذي يتولى زعامة القوميات هم المترفون الذي يتذرعون بذرائع العصبية القبلية ليحققوا مطامحهم الشخصية، فهم قد فقهوا عن الشيطان أن بوق القومية هو البوق الذي يستحث الشعوب المشبعة بذكريات ماضيها إلى التبعية العمياء.

والقرآن الكريم لا ينكر عليهم تعلقهم بأسلافهم وجذورهم، بل ينكر عليهم كون هؤلاء الأسلاف أضعف شأنا من أن يكونوا قدوة أو قادة لغيرهم، وهو ما لا يستطيع تقبله هؤلاء الذين يعيشون على أوهام الماضي، قال تعالى :﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة:170)

وفي آية أخرى يصور القرآن الكريم قناعة هؤلاء واكتفاءهم بما وجدوا عليه آباهم، فهم مشبعون بفكر أسلافهم لا يرضون عنه بديلا، قال تعالى :﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا

يَهْتَدُونَ﴾ (المائدة:104)

بل إنهم يربطون بين أمر الله وما وجدوا عليه آباهم، فلآبائهم من العصمة ما يتسحيل معه أن يخالفوا أمر الله، أو لهم من القداسة ما يحيل على الله أن يـأمر بخلاف مـا كان عليه آباؤهم، قـال تعـالى مخـبرا عن المـبررات الـتي يتـذرعبها هـؤلاء إذا مـا نهـوا عن الفـواحش :﴿ وَإِذَا فَعَلُـوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُـلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَـأْمُرُ بِالْفَحْشَـاءِ أَتَقُولُـونَ عَلَى اللَّهِ مَـا لا تَعْلَمُـونَ﴾ (الأعراف:28)

ويخبرنـا القـرآن الكـريم عمـا تفعلـه القوميـات في عصرنا هذا كمـا في العصـور السـالفة من تقـديم الـوطن والقوميـة على اللـه، فيحفـظ الصـبيان من الأناشـيد الـتي تــزرع فيهم التعلــق بالجــذور مــا ينســيهم تعلقهم بــربهم وذكرهم له، ويدرسون من التـاريخ مـا يملـؤهم بالتيـه في الوقت الذي يتغافلون فيـه عن النمـاذج الرائعـة الـتي من الله بها على البشـرية لتكـون قـدوة لهـا، قـال تعـالى عن موقف لا يعرف فيه المؤمن الحقيقي غير ربه في الــوقت الـذي ينشـغل فيـه القـومي بسـرد سـيرة أسـلافه:﴿ فَـإِذَا قَضَـيْتُمْ مَنَاسِـكَكُمْ فَـاذْكُرُوا اللَّهَ كَـذِكْرِكُمْ آبَـاءَكُمْ أَوْ أَشَـدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الـدُّنْيَا وَمَـا لَـهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ) (البقرة:200)

ويذكر القرآن الكريم استدلالهم المطلق بفعل آبائهم، وكـأنهم الآلهـة الـتي تشـرع لهم وتـبين لهم سـنن الكـون ونواميسه وقوانيه، قـال تعـالى :﴿ ثُمَّ بَـدَّلْنَا مَكَـانَ السَّـيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّـرَّاءُ وَالسَّـرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (لأعراف:95)

ويبين العلاقة الحقيقية مع الآباء والإخوان والعشائر والقبائل في حال استحبابهم الكفر على الإيمان فيقول:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْأِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (التوبة:23)

ويصور القرآن الكريم الدافع الحقيقي لهذه المشاعر القومية المبعدة عن الحق عند ذكره لارتباط عبادة الأسلاف بالكبرياء في الأرض، يقول تعالى:﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:78) وذلك لأن المتكبر كما يرى لنفسه وجودا متميزا عن غيره لا يتصور لماضيه غير ذلك الوجود المتميز.

وفي موضع آخر يبين أن الحاجز بينهم وبين تدبر الآيات الواضحات هو مخالفتها للأعراف التي ورثوها عن أسلافهم، قال تعالى :﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون:68) ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ (الانبياء:53)، وقال تعالى :﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (الشعراء:74)

ويعتبر القرآن الكريم الدعوات الشعوبية العنصرية صدى لنفخات شيطانية قال تعالى :﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (لقمان:21)

ويصور ذلك اللهث الأعمى وراء تراث الأسلاف مع بعده عن الحق بل إبعاده عنه بقوله تعالى :﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ) (الصافات: 69،70) قال أهل اللغة :(لا يكون الإهراع إلا إسراعا مع

رعدة يقال أهرع الرجل إهراعا أي أسرع في رعدة من برد أو غضب أو حمى وهو مهرع ل وقيل أهرع أي أهرعه حرصه وعلى هذا يهرعون أي يستحثون عليه)(1)

وقد ورد هذا الوصف في موضعين في القرآن الكريم الأول منهما في قوله تعالى :﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾(هود: 78)، وقوله: ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (الزخرف:22)

ويخبر القرآن الكريم عن عرض يقدمه الأنبياء على أقوامهم، هو مشروع حياة أنجح من المشروع الذي ورثوه عن أسلافهم، لكن المتفانين في حب الذات والمستغرقين في عبادة السلاف يرفضون هذا المشروع قبل أن يستمعوا له، قال تعالى: ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (الزخرف:24)

ولذلك، فإنه من المستغرب والمستبعد أن يركن المؤمن لأي شيء يبعده عن ربه أو يحجبه عنه كائنا من كان، قال تعالى :﴿ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾(المجادلة:22)

ويعقب القرآن الكريم مبينا العوض الإلهي لهؤلاء الذين باعوا الفرح والزهو بالقومية والشعوبية والعشائرية بفرح الانتماء لله رب العالمين، جزاء لا يمكن تصوره، وعوضا لا يفقه إلا من ذاقوه، قال تعالى :﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ

---

(1) انظر: القرطبي: 9/74.

تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ خَالِـدِينَ فِيهَـا رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُـــوا عَنْـــهُ أُولَئِكَ حِـــزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِـــزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (المجادلة:22)

ولا بأس أن نقرب هنا بعض ما ذكر من بدائل إيمانيــة تعوض المضحين بالقومية والعشائرية، فـأول مـا يرزقـون هو الإيمان الـذي عـبر عنـه القـرآن الكـريم بالكتابـة، فهـو إيمان مكتوب في قلوبهم لا تمحـوه الميـاه، ولا يـؤثر فيـه المناخ.

والجزاء الثاني هو تأييدهم بروح منه.

والجزاء الثالث هو إدخالهم الجنات التي تجـري تحتهـا الأنهار خالدين فيها.

والجزاء الرابع هو رضى الله عنهم، وهو الرضى الذي لا يساويه أي جزاء.

والجزاء الخامس هو رضاهم عن الله.

والجزاء السادس هـو أنهم لا ينسـبون إلى عشـائر أو أقوام بل ينسبون إلى الله.

والجزاء السابع، وهو خاتمة كل هذه الجـوائز الربانيــة هو الفلاح المستقر المستمر الذي لا تقـرره لجـان بشـرية يغلب عليهـا الهـوى، وتتحكم فيهـا الأمزجـة، وتكـثر حولـه الطعون، بل هو نجاح بتقرير رباني يحمل موشور السعادة الدائمة الخالدة.

ويضرب القـرآن الكـريم نموذجـا بشـريا عن المـؤمن الــذي لم يصــله نفخ الشــيطان، ولم يتــأثر لصــداه، وهــو

إبراهيم عليه السلام، فينقل موقفه مع أبيه[1]، يوجهه بكل وسائل التوجيه، قال تعالى :﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْـوَةٌ حَسَـنَةٌ فِي إِبْـرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَـهُ إِذْ قَـالُوا لِقَـوْمِهِمْ إِنَّا بُـرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَـا بِكُمْ وَبَـدَا بَيْنَنَـا وَبَيْنَكُمُ الْعَـدَاوَةُ وَالْبَغْضَـاءُ أَبَـداً حَتَّى تُؤْمِنُـوا بِاللَّهِ وَحْـدَهُ إِلَّا قَـوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيـهِ لَأَسْـتَغْفِرَنَّ لَـكَ وَمَـا أَمْلِـكُ لَـكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ

1() المراد به في الآيات الكريمة ـ كما يذكر أكثر المفسرين ـ عمه، لأن الأب في اللغة العربية يطلق على العم أيضا، ومن الأدلة على ذلك من القرآن الكريم أن إبراهيم عليه السلام وَعَد أباه أنْ يستغفرَ له ، وبالفعل وَفيَ بِوعده كما قال تعالى: رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيم وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ، لكن سُرعان ما رجع عمّا كان قد رجا في أبيه خيراً ، ومِن ثَمّ تبرّأ منه حين لم يرجُ فيه الصلاح ويئِس منه ، قال تعالى : وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأوَّاهٌ حَلِيمٌ

هذا في بداية أمره قبل مغادرة بلادِه وقومِه قاصداً البلاد المقدّسة ، والدليل على ذلك أنّه يبدأ الدعاء بقوله : رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ

وبعد مغادرتِه إلى الأرض المقدّسة ، نراه يبتهل إلى الله أن يرزقَه أولاداً صالحين . فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ، وهنا يُجيب الله دعاءه : وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ

ثمّ إنّه لمّا كَبُر ابنه إسماعيل وبنى البيتَ الحرام نراه يدعو لوالديه ويستغفر لهما : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ إلى قوله : رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ

وقد علق العلاّمة الطباطبائي على هذه الشواهد القرآنية بقوله: (والآية بما لها من السياق والقرائن المُحتفّة بها خير شاهدةٍ على أنّ والدَهُ الذي دعا له واستغفر له هنا غير أبيه آزر الذي تبرّأ منه في سالف الأيّام ، فقد تحصّل أنّ آزر الذي جاء ذِكره في تلك الآيات لم يكنْ والد إبراهيم ولا أباه الحقيقي ، وإنّما صحّ إطلاق الأب عليه لوجود عناوين تسوّغ اللغة مثل هذا الإطلاق

شَـيْءٍ رَبَّنَـا عَلَيْـكَ تَوَكَّلْنَـا وَإِلَيْـكَ أَنَبْنَـا وَإِلَيْـكَ الْمَصِـيرُ﴾ (الممتحنة:4)

ويعمم في موقف قرآني آخر موقفه من أبيـه وقومـه جميعا، فقـال تعـالى :﴿ وَإِذْ قَـالَ إِبْـرَاهِيمُ لِأَبِيـهِ آزَرَ أَتَتَّخِـذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَـكَ فِي ضَـلالٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعـام: 74)

ويكرر هذا الموقف بصيغ مختلفـة، ليرسـم بـه صـورة الإنسـان المـؤمن الـذي امتلأ قلبـه باللـه، فمحى كـل مـا يحجزه عنه، قـال تعـالى :﴿ إِذْ قَـالَ لِأَبِيـهِ وَقَوْمِـهِ مَـا هَـذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ (الانبياء:52)، وقال تعالى :﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُـدُونَ﴾ (الشـعراء:70)، وقـال تعالى :﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيـهِ وَقَوْمِـهِ مَـاذَا تَعْبُـدُونَ﴾ (الصـافات: 85)، وقال تعـالى :﴿ وَإِذْ قَـالَ إِبْـرَاهِيمُ لِأَبِيـهِ وَقَوْمِـهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (الزخرف:26)

حـتى اسـتغفاره لأبيـه الـذي كـان نتيجـة رقـة قلبـه سرعان ما تنازل عنه، بل استغفر اللـه منـه لمـا تـبين لـه عداوته لله، قال تعالى :﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْـرَاهِيمَ لِأَبِيـهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَـدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَـهُ أَنَّهُ عَـدُوٌّ لِلَّهِ تَبَـرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة:114)

وهـذا مقتضـى الخلـة، فالخليـل لا ينبغي لـه أن يقـدم أحدا على خليله مهما كان.

كالجدّ للأمّ والعمّ ، وزوج الأُمّ ، وكلّ مَن يتولّى شأن صغير ، وكذا كلّ كبير مُطاع ، ونحو ذلك ، وليس مثل هذا التوسّع في إطلاق لفظ الأب مختصّاً بلغة العرب ، بل هو جارٍ في سائر اللغات أيضاً) (انظر: تفسير الميزان : 7 / 168 ـ 171)

هذا الكتاب

يحـاول هـذا الكتـاب ــ عـبر الموضـوعات القرآنيـة العشرة التي طرحها ــ أن يتعـرف على أسـرار النهي عن الفرح في القرآن الكريم، والذي ورد التصريح به في قوله تعـالى: ﴿ لا تَفْـرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَـرِحِينَ ﴾ (القصـص: 76)

فهـذا النهي الـوارد على لسـان الناصـحين من بـني إسرائيل لقارون، نهي سار إلى يوم القيامة، وهو يعبر عن الحقيقـة بلسـانها الفصـيح الناصـح.. ذلـك أننـا نحتـاج أن نسـتمع لمن يـدعونا إلى عـدم الفـرح كمـا نحتـاج إلى من يدعونا إلى عدم الحزن أو عدم اليأس..

ذلك أن الفرح مثله مثـل الحـزن واليـأس قـد يتحـول إلى أداة من أدوات الشـيطان الـتي يخـرب بهـا بنيـان الإنسان، ويجعله منشغلا بمـا وصـل إليـه من نعمـة، غـافلا عما ينتظره من ألم.

ولذلك جمع الله بين النهي عن الأمرين جميعا: الحزن والفرح في قوله تعـالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَـوْا عَلَى مَـا فَـاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُـوا بِمَـا آتَـاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُـلَّ مُخْتَـالٍ فَخُـورٍ ﴾ [الحديد: 23]